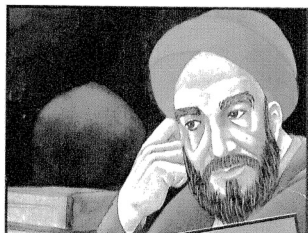


علماء العرب



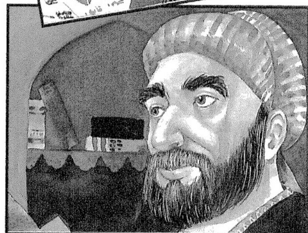
٣

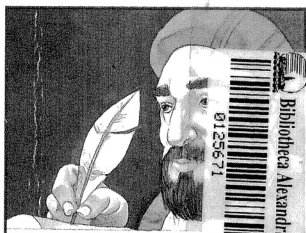


ابن خلدون
ابن سينا
الفارابي
الكندي



إعداد : راجي عنايت
رسوم : هبة عنايت





علمَاء العَرب

للفتيان والفتيَات

ابن خلدون • ابن سينا • الفـــارابي • الكندي

الطبعة الأولى
1995

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، شارع برلين
بناية برج الكارلتون
ت: 807900/1 ص.ب.: 11-5460
تلكس: LE/DIRKAY 40067 برقيًا: موكيالي

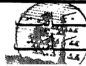


دار الفارس للنشر والتوزيع
عمان، الشميساني، شارع عبد الحميد شومان
عمارة بترا سنتر، فوق (مطعم بيتزاهت)
ت.: 605432 فاكس: 685501
ص.ب.: 9157 عمان 11191



٣

ابن خلدون
ابن سينا
الفــــارابي
الكندي



إعـــداد : راجــي عنايت
رســـوم : هبــة عنايت



ابن خَلدُون

«مؤسّس علم الاجتماع»

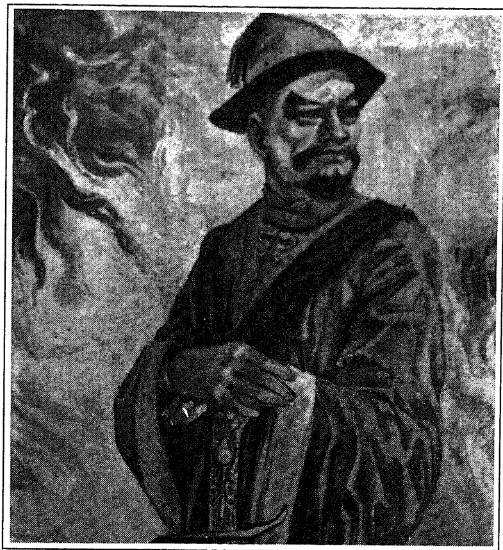


هُوَ أَبُو زَيد

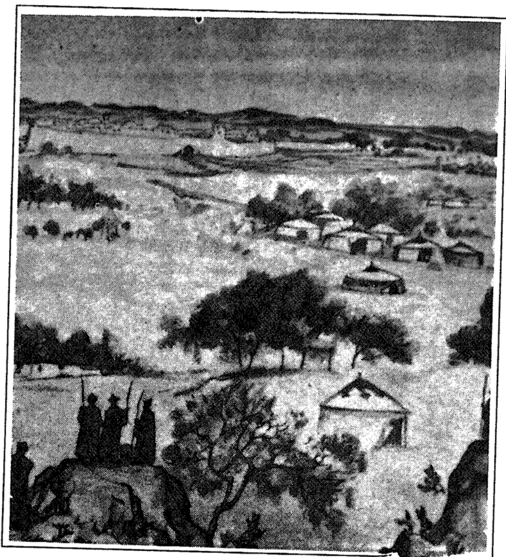
وليّ الدين

عبد الرحمن

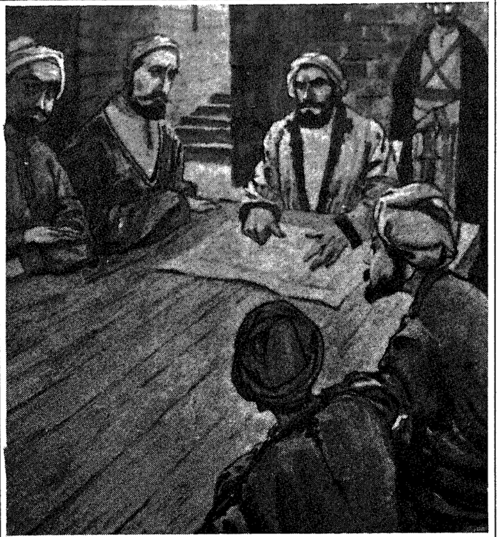
ابن محمّد



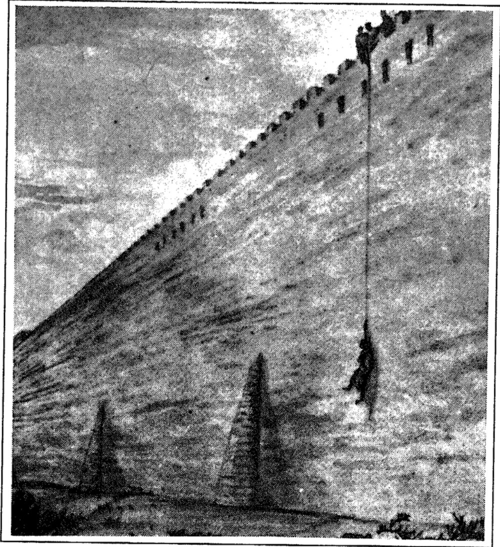
وَصَلَ الغازِي التّتري تيمورلنك إلى مدِينَةِ حَلَب، فاستولى عليها، ثم استباحَها، وأعمَلَ فيها التخريبَ والتدميرَ وسَفْكَ الدّماء، بما جعلَه مستحقاً اللّقَبَ الذي عُرِفَ به، وهو «أميرُ الدَّمار».



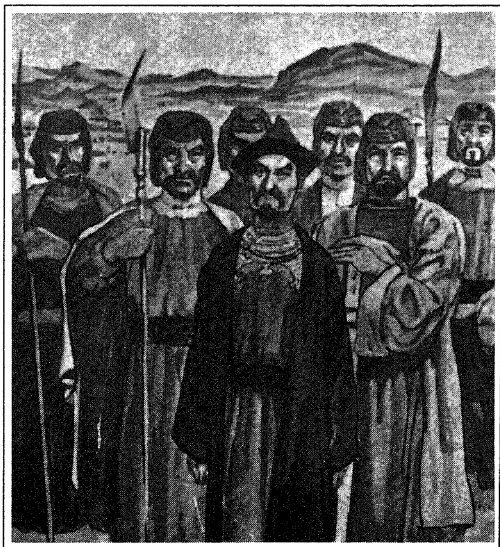
وَمَا أن انتهَى من حَلَب، حتى توجَّه إلى دِمشق. حاصَرَها، وأخَذَ بخبرتِه الحربية، يتحسّسُ قوةَ جيشِها ومناعةَ استحكاماتِها، في مناوشاتٍ صغيرةٍ.



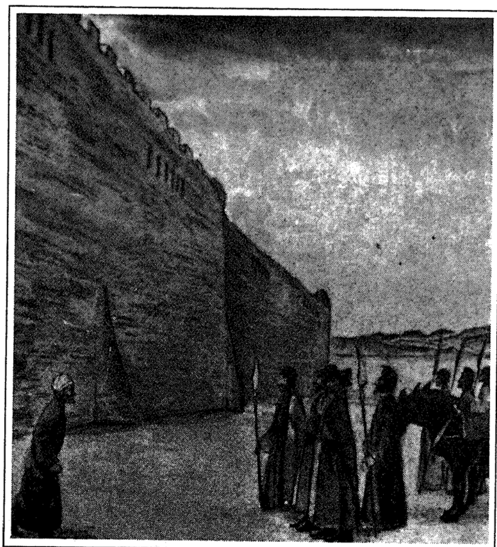
وفي داخلِ أسوارِ مدينةِ دمشق، اجتمعَ القادةُ العسكريون، يَبحثونَ الموقف. فوجدوا أن مقاومَة تيمورلنك، ستؤدِّي إلى تدميرِ المدينةِ تماماً. فاستقرَّ رأيُهم على مفاوضتِه. وكان رسُولُهم إلى تيمورلنك، هوالعالمُ الشيخُ عبدُ الرحمن بنُ خَلدون.



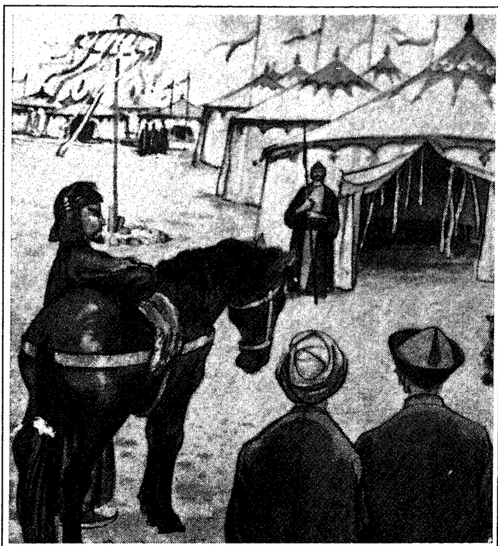
في الصباحِ المبكرِ لليومِ التالي، قامَ الجنودُ العربُ بإنزالِ ابنِ خلدون من فوقِ أسوارِ دمشق، بواسطةِ حبلٍ رَبطوه بهِ، وأخذوا يُدلونَه برفقٍ حتَى وَصَلَ إلى الأرضِ بسلام.



عندَ السور من الخارج، كان جُنود الغازي، في انتظارِ الرسولِ الهابطِ من فوقِ السور. وكان على رأسِهم «شاه ملك» نائبُ تيمورلنك، الذي عَيَّنَه والياً على دِمشق، قبلَ الاستيلاءِ عليها.



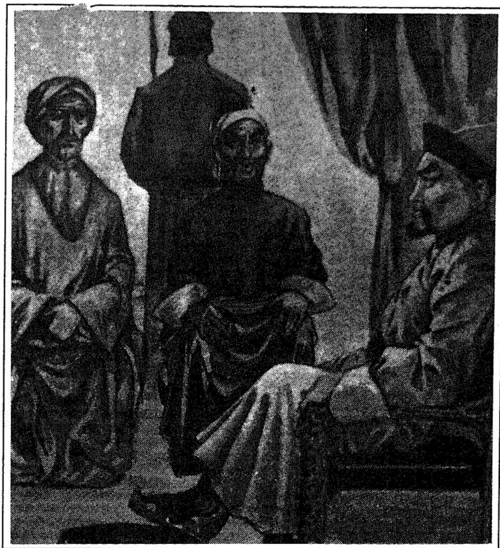
جَرَى استقبالُ ابنِ خلدون باحترامٍ وتوقير، وَجَدَ في انتظارِهِ حصاناً مُسْرَجاً، يحملُهُ إلى معسكرِ تيمورلنك.



وبعد رِحلةٍ قصيرة، وصلَ الرَكْبُ إلى المعسكر، الذي كان يَمُوجُ بالحركةِ والنشاطِ، ولَفَتَت نَظرَ ابنِ خلدون خيامُ تيمورلنك وقادتِه، بقُماشِها المُزركش، وأعمدتِها المفضَّضة، وحِبالِها المكسوّةِ بالحرير.



سَمَحَ تيمورلنك لابن خلدون بالدّخولِ عليه، فدخَلَ الشيخُ إلى الخيمةِ وَجِلاً.. ليجدَ تيمورلنك يجلسُ مُتكئاً على مِرْفَقِهِ، وصِحَافُ الطعامِ المذهّبةُ تمرُّ بين يديه.



ما أن انتهَى من طَعامِه، حتى جِيءَ بالمترجمِ الذي أخَذَ يَنقلُ الكلامَ بينهما. واستمرت المفاوضةُ بينَهُمَا مدةَ أربعين يوماً. حَرِصَ تيمورلنك خلالَها على أن يسألَ ابنَ خَلدون عن عملِهِ ومُنْجَزَاتِهِ في التاريخ، وعن أحوالِ المغربِ والمشرقِ العربي.



وفجأة.. وَصَلت المفاوضاتُ إلى نهايتِها.. عندما أقبلَ بعضُ فُرسان تيمورلنك فَرحين مُهلّلين، يعلنون سقوطَ دمشقَ بين أيديهم.. فَيُنكِّسُ ابنُ خلدون رأسَه حُزناً على إخفاقِه في مَهَمّتِه.. وَيَمضي عائداً إلى مصر.

أسرةٌ عريقة:

هو أبو زيدٍ وليُّ الدين عبدُ الرحمنِ بنُ محمد، الشهير باسمِ.. ابنِ خلدون.

أما اسمُه فهو عبدُ الرحمن.. وقد أُضيفت (أبو زيد) بعد أنْ أنجَبَ ابنَه الأكبرَ زيداً، على عادةِ العرب.. واكتسب لَقَبَ (ولي الدين) بَعْدَ أنْ تَوَلّى مَنصِبَ القضاءِ بمصر.. و(ابن خلدون) اسمُ الشهرةِ هذا، وصلَ إليه من أجدادِه العرب، الذين دَخلوا الأندلسَ مع الفتحِ العربي.

فعبدُ الرحمنِ بنُ خلدون، من أسرةٍ عربيةٍ عَريقة، هاجَرت من حَضْرَموتَ في جنوبيّ بلادِ العَرَب إلى الحِجَاز، في العصورِ السابقةِ للإسلام. واشتُهِرَ منها في صدرِ الإسلام، وائلُ بنُ حَجَرَ الذي صَحبَ الرسولَ عليه السلام، ورَوَى عنه الأحاديث. كما أن الرسولَ عليه السلام، أوفدَه إلى اليمنِ يُعلّمُ أهلَها القرآنَ والإسلام.

وفي زمنِ الفتحِ العربيّ للأندلس، دخلَ إليهَا خالدُ بنُ عُثمان، أحدُ أجدادِ ابنِ خَلدون.. وعن طريقِ هذَا الجد، اكتسبت الأسرةُ اسمَ (خلدون).. فعندما وصلَ خالدُ بنُ عُثمَان إلى

الأندلس، تَبعَ عادةَ أهلِ الأندلس والمغربِ في التعظيم، فتحوَّلت (خالد) إلى (خَلْدُون).

نَشَأَ بنو خَلدون في مدينةٍ بالأندلس تسمَّى «قَرْمُونة»، ثم نَزَحوا بعدَ ذلك إلى مدينةِ «أشبيلية». ومنذ ذلك الحين، اكتسبَ بنو خلدون شهرةً واسعةً كرجالِ سياسةٍ وحُكم، وكعلماء أفاضل. ففي زمنِ الأميرِ عبدَالله الأُمويّ، اضطربت الأندلسُ بالفِتَنِ والثورات، وكانت أشبيليةُ موطن بني خَلدون في مقدّمةِ المدنِ الثائرة، وانتهت الثورةُ بأن استقلَّ أحد أجدادِ ابنِ خلدون بإمارةِ أشبيلية، وهو كُرَيبُ بنُ خلدون. كما اشترك زُعَمَاءُ بني خَلدون في موقعةِ «الزّلاَّقة» الشّهيرة، التي انتصرَ فيها العربُ على الفونسو السادسِ ملكِ قَشْتَالَة «إقليمٌ بإسبانيا». وفي عهدِ ابنِ عَبّاد، صَعِدَ عددٌ من أسرةِ ابنِ خلدون إلى مرتبةِ الرئاسةِ والوزارة.

وعندما ضَعُفَت دولةُ العربِ في الأندلس، واضطَربت الأمور، هاجرَ بنو خلدون إلى تونس، حيث تولّى الجدُّ الثاني لعبدِ الرّحمن (أبو بكرٍ مُحمد) شؤونَ الدولةِ بتونس، كما تولّى جدُّه الأولُ (محمدُ بن أبي بكر) رئاسةَ الوزارةِ لِحاكِمِ إمارة «بَجّاية». أما ابنُه محمّد (والدُ عبدِ الرّحمن)، فقد عَزَفَ عن السياسةِ والسّلطة، وآثرَ العِلم، فكان حُجّةً في علومِ الفِقه، وفي فنون الشّعر. ولم يكن اتّجاهُ والدِ ابن خَلدون إلى العِلم، حالةً شاذّةً في العائلة، فمن بين أجدادِ عبدِ الرحمن، كان عمرُ بنُ خلدون عالمُ الرياضةِ والفَلك والطبّ الشهير.

وقد تحدَّثَ أحدُ قدامَى المؤرّخين عن مكانةِ أُسرةِ ابنِ

خلدون فقال «بيتُ بَني خلدون إلى الآن في أشبيلية، نهايةٌ في النباهة، ولم تزلْ أعلامُه بين رِياسةِ سُلْطانية، ورياسةِ علميةٍ». وكان لتاريخِ الأُسرة، تأثيرُه القويُّ على ابنِ خلدون، سواءٌ فِي سَعْيِهِ السياسيِّ وتطلّعِهِ إلى السّلطة، أم في اجتهادِهِ العِلمي، الذي جعلَه يحظَى عن جدارةٍ بلقبِ «مؤسسِ علمِ الاجتماع».

الكارثةُ المزدوجة:

وُلِدَ عبدُ الرحمن بنُ خلدون بتونُسَ عام ١٣٣٢ م (٧٣٢ هـ)، وكعادةِ أولادِ الأشراف، كان أبوه معلّمَه الأول، عندما بلغَ سنَّ التعلم. ثم انتقلَ بعد ذلك من إشرافِ أبيه، إلى مدرسةِ المسجدِ «الكُتَّاب». وما أن انتهت هذه المرحلةُ من دراستِه، حتى تلقّفته أيدي عددٍ من كبارِ العلماءِ الذين احْتَشَدت بهم تونسُ في ذلك الوقت.

كانت تونُس في ذلك الحين، مركزَ العلماءِ والأدباءِ في بلادِ المغرب، كما أنها كانت قد استَقبلت قبلَ ذَلِكَ التاريخ، الكثيرَ من علماءِ الأندلسِ وأدبائِها. فكان من هؤلاء جميعاً أساتذةُ ابنِ خلدون. قرأ عليهم القرآن، ودرَس علومَ الشريعةِ والتفسيرَ والفقهَ على المذهبِ المالكي، الذي كان سائداً في المغرب. كما دَرَسَ الفلسفةَ والمنطقَ وعلومَ اللغةِ والنحوَ والصَّرفَ والبَلاَغةَ والأدب، مع عنايةٍ خاصةٍ بالشّعر.

وقد تحدَّث ابنُ خَلدون عن أساتذتِه، فخَصَّ منهم بالذكر، استاذَه محمدَ بنَ عبدِ المُهيمِن الحَضْرَميَّ الذي دَرَسَ على يديه علومَ الفقهِ والحديثَ والسيرةَ وعلومَ اللغة... ثم أبا عبدِالله محمداً

الأُبُلّي، الوافدَ من الأندلس، والذي دَرَس عليهِ العلومَ الرياضيةَ والمنطق.

عندما بلغَ ابنُ خلدون السابعةَ عَشْرةَ من عمرِه، كان قد أنهى دراستَه على أيدي أساتذته، وبدأ مرحلةَ التثقيفِ الذاتي، يغوصُ في المراجع، ويشاركُ في المناقشات، معتمداً على الأساسِ العلميِّ المتينِ الذي اكتسبه في المرحلةِ السابقة. في هذه السّن، أخذَ ابنُ خلدونٍ يخططُ لمستقبلِه العلمي، مُقتفياً آثارَ والدِه، ومستمدّاً المثلَ من أجدادِه الذين اشتهروا بعلمِهم، مثلِ عُمَر بنِ خلدون.

إلا أن الأحداثَ الخطيرةَ التي تَبِعَت هذا، غَيَّرت هذه الخُطّة، ودفعت بابنِ خَلدون إلى طريقٍ جديد، هو خليطٌ بين أمجادِ الأسرة السياسيةِ والعلمية.

ففي عام ١٣٤٩ م (٧٤٩ هـ)، وَقَعَ حادثان خَطيران، كان لهما أكبرُ الأثرِ في مجرَى حياةِ ابنِ خلدون. أولُهما، حادثُ وَبَاءِ الطّاعون الجارفِ الذي انتشرَ في معظمِ أنحاءِ العالَم شَرقاً وغرباً، فاكتسحَ البلادَ الإسلاميةَ من سَمَرْقَنْد في قلب آسيا إلى المغربِ في أفريقيا، كما عَصَفَ في نفسِ الوقت بإيطاليا ومعظمِ البلادِ الأوروبية. كان ذلك الوباءُ نكبةً كبرى وصفَها ابنُ خلدُون بأنها «طوَت البِسَاطَ بما فيه». لم يُفرّق الوباءُ بين كبيرٍ وصغير. . وكان بين من قَضى عليهم والدُ ابنِ خلدون ووالدتُه.

أما الحادث الآخر، فكان هجرةَ معظمِ العُلماءِ والأدبَاءِ الذين نَجَوْا من الوباءِ المكتسح، من تونسَ إلى المغربِ الأقصى، في صحبةِ السلطانِ أبي الحَسَن، سلطانِ المغربِ القويّ، الذي كان قد

اكتسحَ المغربَ الأوسطَ والأدنى بجيوشِه حتى استولَى على تونس. عاد السلطانُ إلى مقرِّ سلطنتِه في مدينةِ «فاس» مصطحباً معه العلماءَ والأدباء، لتخلوَ منهم مجامعُ العلمِ والأدبِ في تونس.

بضربةٍ واحدة، حُرِمَ ابن خلدون من الوالدين، ورفقاءِ الدرسِ والعلم. فكان أثرُ هذه الصدمةِ المزدوجةِ على ابنِ خلدون كبيراً. لقد فَقَدَ جَوَّ الاستقرارِ الذي كان يحيطُ به.. وارتبكت خُططُه للمستقبل. ففكرَ في الهجرةِ إلى فاس، ضِمنَ من هاجروا من العلماء، إلا أنّ أخاه الأكبرَ محمدَ بنَ خلدون، أقنعهُ بالبقاء.

تلفَّت فَتانا حولَه، فوجدَ الأسباب قد تَقطّعت بينه وبين مواصلةِ التحصيل.. فلم يكن أمامَه إلا أن يلوذَ بالجانبِ الآخر من تراثِ العائلة.. جانبِ السياسةِ والحُكم.. مقتفياً آثارَ جدّيه الأولِ والثاني، وأجدادِه القدماءِ بالأندلس.

أين السلطانُ القوي؟

كانت دولةُ الموحّدين القويةُ بالمغربِ العربي، قد انْهارت قبلَ هذا التاريخ، وقامت على انقاضِها عِدةُ دويلات وإمارات، تميَّز من بينها:

- دولةُ بني حَفْصٍ بتونس (المغرب الأدنى). وكانت عاصمتُها تونس.

- دولةُ بني الواد بالجَزائر (المغرب الأوسط). وكانت عاصمتُها تِلْمِسان.

- دولةُ بني مَرِين بمرَّاكش (المغرب الأقصى). وكانت عاصمتُها فاس.

وقبلَ حادثِ الطاعون بعدةِ سنواتٍ قامَ السلطانُ أبو الحسن، سلطانُ دولةِ بني مَرين، أقوى الدولِ الثّلاث، بغزوِ جبلِ طارقٍ وانتزاعِهِ من يدِ الأوروبيين، ثم اتّجه شرقاً إلى تِلمسان فاستولى عليها، واستولى بعد ذلك على تونس. ولَبِثَ حوالى عامين في تونس يُرسِي قواعدَ حكمِه الجديدِ فيها، حتى جرى حادثُ الطاعون، فترَكَها إلى عاصمةِ مُلكِهِ فاس، كما أسلفنا.

ما كادَ السلطانُ أبو الحسن، يغادرُ تونس، حتى زحفَ عليها أحدُ رجالِ بَني حَفْص، فاستردَّها، واتخذَ له وزيراً يسمّى ابنَ تافْرَاكِين. وعهِدَ الوزيرُ إلى ابنِ خلدون في عام ١٣٥٠ م (٧٥١ هـ) بوظيفةِ «كِتابة العَلاَمة»، وهي وظيفةٌ كتابيةٌ بسيطةٌ لا تتجاوزُ كتابَةَ «الحمدُ لله والشكرُ له» بالقلمِ الغليظِ بين البَسْمَلَةِ وما بعدَها في كلِّ خطابٍ أو مرسومٍ سُلْطاني. ورغم أنَّ هذه الوظيفة قد جَرحت طموحَ ابنِ خلدون السياسي، إلا أنه قَبِلَها طامِعاً في الصعودِ منها على سُلَّمِ السلطة.

خرجَ ابنُ خلدون مع الوزيرِ ابنِ تافراكين في حملَةٍ حربيةٍ لوقفِ زحفِ أحدِ الأمراءِ على تونس. ولم يكن خروجُ ابنِ خلدُون في هذه الحملةِ حماساً للوزير، بل كان نَوعاً من الفضول، ورغبةً في الاطّلاعِ على طبيعةِ الحرب، التي كانت في ذلك الحينِ الأداةَ الفعّالةَ في الاستيلاءِ على السلطة.

بدأت المعركَة.. فتمخّضت عن هزيمةِ جيشِ ابن تافراكين، وسادت الفوضَى مُعَسكرَ الوزير، وعمَّ الذّعر، ففَرَّ ابنُ خلدون، لكنّه لم يتخذْ طريقَ العودةِ إلى تونس.. بل راحَ يجوبُ البلاد،

حتى وصلَ أخيراً إلى مدينةٍ تسمّى «بِسْكَرة» بالمغربِ الأوسط.

في بِسكرة، أمضى ابنُ خلدون شتاء ذلك العام، وتزوجَ ابنةَ القائدِ محمدِ بنِ الحكيم. ثم أخذَ خِلاَلَ فَترَةِ الاستقرارِ القصيرةِ هذه، يفكرُ في خُطَّةٍ لحياته.. خُطوةٍ تقودُه إلى المركزِ السياسيِّ الذي يصبُو إليه، والذي يتفقُ مع تاريخِ أجدادِه في هذا المِضمار. وهداه تفكيرُه أن يبدأ من فاس، عاصمةِ دَولةِ بني مَرِين.. أقوى دولِ المغربِ العربي. في ذلكَ الوقتِ كان السلطانُ أبو عَنانٍ بنُ أبي الحسن، ملكُ المغربِ الأقصى، قد سارَ بجيشِه لاستردادِ ما فقد في المغرب من دولٍ ومدنٍ استقلَّت بعدَ عودةِ أبيهِ منْ تُونس.. فتمَّ له ذلك، وأثناءَ إقامتِه في تِلْمِسان، سافر إليه ابن خلدون، ساعياً إلى عرضِ خِدْماتِه على السلطانِ القويّ، فعيّنه عُضواً في مجلسِه العلميِّ بفاس، وكلّفَه شهودَ الصلواتِ معه.

سافَرَ ابن خلدون إلى فاس في عام ١٣٥٤ م (٧٥٥ هـ)، وكانت فرحتُه كبيرةً بلقاءِ أساتذتِه من العلماءِ والأدباء، وصحبه رفاق دراستِه، وبالمكتباتِ الكبيرةِ التي تَضُمُّ آلافَ المراجعِ والمخطوطات. وشجعَه هذا على الاستزادةِ من المعارفِ والعلوم، وإن كان حريصاً في نفسِ الوقتِ على تنميةِ وضعِه في السّلطنة، فنجحَ بعدَ عامٍ في أن يُصبِحَ من كتّابِ السلطانِ وموقِّعيه، يسجّلُ الأحكامَ الصادرةَ عن السلطانِ، ويكتبُ له وثائقَه.

فهَل رضِيَ ابنُ خلدون بهذا؟..

ما ان تبددَ حماسُه للوظيفةِ الجديدة، حتى عادَ إليه سُخطُه القديم، وبدأَ يتطلَّع حَولَه، باحثاً عن الفرصةِ المُؤاتية. ومنذ ذلك

الحين، كان تطلُع ابنِ خلدون الدائم، يُحيلُ حياتَه إلى مغامراتٍ عاصفة، تَسُودُها المناوراتُ السياسية، بكلِّ ما فيها من مَدٍّ وجَزْر، وما تتصفُ به من تقلبٍ وانتقالٍ من النقيضِ إلى النقيض. تلك الحياةُ السياسية، التي كان الولاءُ يَخضعُ فيها لتوزيعِ خريطةِ السلطةِ والقوةِ والنفوذ، ذلك لأنَّ الصراعَ بين السّلاطين والأمراءِ أنفسِهم، لم يكن حولَ مبدأٍ أو مذهبٍ أو عقيدة.. بل كان مجردَ صراعِ سلطةٍ ونفوذ.

السّجنِ.. ضريبةُ الطّموح

يُجرِي ابن خلدون اتّصالاً بأميرِ «بَجاية» الأسيرِ في فاس، أبي عبدِالله الحَفْصي، ويضعُ معه خُطةَ تحريرِه من السّجنِ واستردادِه لملكِه، فيعدُه الأميرُ بمنصبِ الحِجابةِ (رئاسةِ الوزارة) إذا نجحت الخُطّة. فيَبلُغُ أبا عَنانٍ خبرُ المؤامرة، ويقبضُ على ابنِ خلدون ويودِعُه السِّجن إلى عام ١٣٥٨ م.

طَوالَ مدةِ سَجْنِه لم ينقطعِ ابنُ خلدونِ عن التضرعِ إلى السّلطان، وطلبِ عفوِه.. ولكن دونَ جدوَى. إلى أن كتبَ قصيدةً مؤثرةً في نحوِ مائتي بيت، فرقَّ له قلبُ السلطان، وقَبْلَ أن يتخذَ قرارَ العفوِ، يعاجِلُهُ الموت.. فيبقَى ابنُ خلدونِ في سجنِه، حتى يصلَ الوزيرُ الحسنُ بنُ عُمَرَ إلى مركزِ السلطةِ فيفرجَ عنه، ويردَّه إلى سابِقِ وظائِفه.

يتوالى الحكامُ على الدولةِ في سِلسلةٍ من المؤامرات والانقلابات، إلاَّ أنَّ ابنَ خلدون يبقَى في وظائِفه، ناقلاً ولاءَه من سلطانٍ إلى آخر، مُساهماً في هذه التغيّرات، بما يَحْمِي وجودَه،

ويحفظُ له وظائفَه. وتنجحُ خُطتُه هذه، فما أن يصلَ أبو سالم بنُ أبي الحسنِ إلى السَّلطَنة، حتى يجعلَه موضعَ ثقتِه وعطفِه، ويعيِّنه في وظيفة «كتابةِ سرِّه، والترسيلِ عنه، والإنشاءِ لمخاطباتِه».

تستقرُّ حياةُ ابنِ خلدون بعضَ الشيء، فيُبدعُ في كتابةِ الرسائل، وينهجُ فيها نَهْجاً جديداً، ويحررُها من قيودِ السجْعِ التي كانت شائعةً في ذلك العصر. وتتفتحُ شاعريّتُه، فينظمُ الكثيرَ من الشعر، وفي هذا يقولُ ابنُ خلدون، بصدقِه في التسجيل وموضوعيته في الحُكم «ثم أخذتُ نفسي بالشّعر، فانْثَالَ عليّ منهُ بُحور، توسّطت بين الإجادة والقُصور». وتتضاعفُ سعادةُ ابنِ خلدون عندما يضافُ القضاءُ إلى مناصبِه، فيمارسُه بعدالةٍ وكفاءةٍ، ويتعرفُ من خلالِ وظيفتِه هذه على مشاكلِ الناسِ ومشاعِرِهم.

وفي عام ١٣٦١ م (٧٦٢ هـ)، تَحْدُث ثورةٌ على السلطان، فَيُخْلَع، ويخلِفُه أخٌ له، وان استبدَّ بالسلطةِ وزيرٌ يُدعى عميرَ بنَ عبدِالله، كان صديقاً لابنِ خلدون. ويتوقعُ ابنُ خلدون أن يصعدَ في سُلمِ السلطةِ على يدِ الوزيرِ الصديق.. إلا أنَّ توقعَه يبقى مجردَ حُلم.. ويطولُ به التوقّع دونَ جدوَى.. فيغضبُ ويستقيل.

يتطلعُ ابنُ خلدون حولَه، باحثاً عن الموقعِ المناسبِ لتحقيقِ طموحِه.. فلا يَرى في المغربِ العربيِّ بأكملِه ما يتيحُ له هذه الفرصة.. ثم يتذكرُ أن سلطانَ غرناطةَ بالأندلس، محمَدَ بنَ الأحمر، ووزيرَه الأديبَ الشهيرَ ابنَ الخطيب، تربطُه بهما صداقَةٌ متينَة، منذ أن كانا لاجِئَيْنِ في بلادِ السلطانِ أبي سالم بفاس، وأنه قَدَّمَ لهما الكثيرَ من الخِدمات، فيصحُّ عزمُهُ على الارتحالِ عن

القارةِ الأفريقيةِ بأكملِها. . . والسفرِ إلى غَرْناطة.

فيرسلُ زوجتَه وأولادَه إلى أخوالِهم، أبناءِ القائدِ محمدِ بنِ الحكيم، ثم يقصدُ إلى ميناءِ «سَبْتة» في عامِ ١٣٦٢ م (٧٦٤ هـ)، حيث يركبُ سفينةً صغيرةً تُوصلُه إلى جبلِ طارق. ومن هناك يتوجَّهُ إلى غَرْناطة.

سفيرُ غَرناطةَ النّاجح

يَحتفِي سلطانُ غَرناطةَ ووزيرُها بابنِ خلدون، ويعاملانه معاملةً كريمة، فيضمّه السلطانُ إلى مجلسِه، ويقرِّبُه إليه، مما يبعثُ السعادة إلى قلبِ ابنِ خلدون، وتتفتحُ آمالُه من جديد.

ويفكرُ السلطانُ في تهدئةِ الأوضاع، بينه وبين ملكِ قَشْتالةَ الأوروبي، والذي كان يسمَّى بيير القاسي، لما اشتُهِرَ به من صرَامةٍ وطُغْيَان وَبَطْش. فيقعُ اختيارُ السلطانِ على ابنِ خلدون للقيامِ بأمرِ السِّفارةِ بينه وبين الملكِ الأوروبي، ولإبرامِ صُلحٍ معه، وتنظيمِ العلاقاتِ السياسيةِ بينهما.

يَسْعَدُ ابنُ خلدون بالمهمةِ سعادةً مُزدَوِجَة. . ففيها امتحانٌ حقيقيٌّ لقدراتِهِ السياسية، كما أنَّ سفره إلى «أشبيلية» عاصمةِ قَشتالة، يحققُ رغبتَه القديمة، في زيارةِ المدينةِ التي عَرفت أمجادَ أجدادِه الأُولِ المهاجرينَ من بلادِ العرب.

ينجحُ ابنُ خلدون في مهمتِه كلَّ النجاح، ويحققُ كلَّ أغراضِ الزيارة، وعندما يعودُ إلى غرناطة، يَهَبُه السلطانُ إحدَى القرى المجاورةِ لغرناطة، مكافأةً له على جُهْدِهِ الناجح، فيتضاعفُ دَخلُهُ،

وتَتحسَّنُ أحوالُه. ويستأذنُ السلطانَ في استقدام أُسرتِه، فيبعثُ السلطانُ مَن يَجيءُ، بها، ويأمُر أسطولَه بنقلِ الأسرةِ إلى الشاطىءِ الأسبانيّ، حيث كان ابنُ خلدون في انتظارِها، فيلتئمُ شملُ العائلة، ويتحركُ الرّكبُ إلى قريتِه، بما هَيّأه فيها من منزلٍ جميل، وبستانٍ حسنِ التنسيق. وبدَا كما لو أنَّ الحياة قدِ استقرّت بهذه العائلةِ بعدَ طُولِ اضطراب.. إلا انه ما ان تَمضِي عدةُ شهور.. حتى تتجمعَ السُّحبُ الملبَّدةُ في الأفق.

فالعلاقاتُ بين ابنِ خلدون والسلطانِ تتوطَّد، وفي كلِّ يومٍ يزدادُ قربُ ابنِ خلدون منه، فيسعَى الوُشاةُ إلى الوزيرِ ابنَ الخطيب، يُحذّرونه من عاقبةِ هذهِ العلاقةِ النامية، ويستجيبُ الوزيرُ إلى هذهِ الوِشَايَات، ويأخذُ بِدَورِه في الإيقاعِ بابنِ خلدون عندَ السلطان.. ويَشُمّ ابنُ خلدون بحاسّتِهِ السياسيةِ رائحةَ الخطرِ المقبل. فيأخذُ من جديد، يتطلعُ إلى الدولِ والإمارات من حولِه، باحثاً عن ملاذ.. ولكن إلى أين؟..

وتجيءُ الإجابةُ عن هذا السّؤال، في شكلِ دَعوةٍ من أبي عبدِالله الحفْصي.. الأميرِ الأسيرِ الذي اشتركَ معه منذ عدةِ سنواتٍ في وضع خُطةِ الهروبِ الفاشلةِ، التي أدّت به إلى السِّجن.. لقد أصبحَ الآن أميراً على عَرش «بجاية». عَرَضَ ابنُ خلدون الدعوةَ على سلطانِ غرناطة مستأذِناً في السَّفر، فأذِنَ له، وزودَه بالعَطَايا والمِنَح، وكتبَ له مرسوماً بالتّشييع (وهو ما يقابلُ جوازَ السفرِ هذه الأيام)، يفيضُ مَدحاً وثناءً على ابنِ خلدون وبالأسفِ على فِراقِه، ويأمرُ كلَّ منْ يلقاه، بتقديمِ كافةِ المساعدات والتسهيلات.

وهكذا، ركِبَ ابنُ خلدون البحرَ تَصْحَبُه أُسرتُه، مبارحاً الشاطىء الأسباني، في طريقِه إلى بجاية، وكان ذلك في عام ١٣٦٤ م (٧٦٦ هـ).

ابنُ خلدون.. رئيساً للوُزراء

في بِجاية.. كان في استقبالِ ابنِ خَلدون أميرُهَا وأهلُها. وفي هذا يقول، «احتفلَ السلطانُ صاحبُ بجايةَ لقدومي، وأَركبَ أهلَ دولتِهِ للقائي، وتهافت أهلُ البلدِ عَليَّ من كلِّ أَوْب، يَمسحون أعطافي، ويُقبّلون يدي، وكان يوماً مشهوداً».. كيف لا.. وقد قَدِمَ ابنُ خلدونَ إلى بجايةَ رئيساً لوزرائها.

ويصف ابنُ خلدون حالَه في ذلك الوقت قائلاً: «وأصبحت من الغد، وقد أمرَ السلطانُ أهلَ الدولةِ بمباكرةِ بابي، واستقللت بِحَمْلِ مُلكِه، واستفرغت جُهدي في سياسةِ أمورِه وتدبيرِ سُلطانِه، وقدَّمني للخَطابةِ بجامع القَصَبة، وأنا مع ذلك عاكف ـ بعد انصرافي من تدبيرِ المُلك غُدوة ـ إلى تدريسِ العلمِ أثناءَ النهارِ بجامعِ القصبة».

وهكذا تتحققُ لابنِ خلدون أحلامُه كاملة، أرقى المناصب السياسية، وأعلى المراكزِ العلميَة. ومضى يُديرُ الأمورَ بِحَسْمٍ وكفاءة، يعالجُ الفِتَنَ القائمة، ويتجوّلُ بين قبائلِ البدو، يَجبِي منها الضرائبَ بكلِّ ما أُوتي من صرامةٍ وإقناع.

إلا أن الرياحَ العاصفةَ لا تلبثُ أن تَهُبَّ من جديد، لتُبدّدَ أمنَ حياتِهِ الجديدة. يهجُمُ السلطانُ أبو العباسِ حاكمُ «قُسَّنْطينة» بجيوشِه

على ابنِ عمّه سلطانِ بجاية، فيقتُله ويدخلُ بجايةَ ظافراً.

تأكدَ ابنُ خلدون من استحالةِ اتصال حياتِه السابقةِ في بجاية. وأخذ يفكّر - بمرارة - في احتمالاتِ المستقبل، تُحْزنُه هذه النهايةُ المبتورة، لفترةٍ قصيرةٍ من حياتِه بدأ يحقق فيها أحلامَه القديمة. وأحسَّ أن القلقَ والاضطراب، هو قَدَرُ حياتِهِ المحتومُ الذي لا فِكَاكَ منه. فتوقفَ عن الحركةِ انتظاراً للخطوةِ القادمة.

وعندما أتاه بعضُ الزّعماء، طالبين منه أن يدعوَ لأحدِ أبناءِ السلطانِ القتيلِ خليفةً له، وأن يواصلَ معهم النضالَ ضدَّ السلطانِ الغازي.. أصغَى إليهم بعقلٍ غائب.. وتركَهم ينصرفون، دون أن يستجيبَ لمطلبِهم. وكان من نتيجةِ هذا، أن أكرمَه السلطانُ أبو العباس، فأبقاه في منصبِ رئاسةِ الوزارة بعض الوقت، ثم ما لبثَ أن انقلبَ عليه، فخافَ ابنُ خلدون على حياتِه، وفرَّ إلى مدينة بِسْكرة.. ملاذِه كلَّما تعقدت الأمور.

في بسكرة، أقامَ ابنُ خلدون، يتابعُ الأحداث، ويتسقّطُ الأنباء. متصوراً أنه في مكانِهِ هذا، قادرٌ على البقاءِ ما شاء من الوقت، حتى تَحِلَّ اللحظةُ المناسبةُ لحركتِه. غيرَ أن الأمرَ لم يعدْ على هذه الصورة.. فقد أضحى ابنُ خلدونَ بنفسِه، قوةً يسعى إليها السلاطينُ والأمراء، لما عُرِفَ عنه من قُدرةٍ على تحريكِ قبائلِ البدو واستنفارِها.

اكتشفَ ابنُ خلدون هذه الحقيقةَ خلالَ الفترةِ التاليةِ من حياتِه.. اكتشفَ أنه أصبحَ مجردَ أداةِ إثارةٍ وتهييجٍ وتأليبٍ في يدِ السلاطين، وكأنَّ هذا هو غايةُ قُدُراتِهِ ومواهبِهِ وعلمِه. ولعلَّ هذا

الاكتشافَ، هو الذي أدّى إلى التغييرِ الكبيرِ الذي طَرأ على حياتِهِ في المرحلةِ التاليةِ من أيامِه.

ابن خلدون. . في الدّوامة

في بسكرة، أرسلَ إليه الأميرُ أبو حمُّو سلطانُ تِلْمِسان، يعرضُ عليه رئاسةَ الوزارةِ في تلمسان، مقابلَ الاستعانةِ بخبرتِهِ وعلاقاتِه، في دعوةِ القبائلِ واستمالتِها وتأليبها على السلطان أبي العباس، الذي غزَا بجايةَ وقتلَ سلطانَها.

اعتذرَ ابنُ خلدونِ عن قبولِ رئاسةِ الوزارة!. . واكتفى بأن رشَّحَ أخاه يحيى. ويقول ابنُ خلدون إنَّ الذي دَعَاه إلى هذا الاعتذار، عزوفُه حينئذٍ عن شؤون السّياسة، ورغبتُه في الرجوعِ إلى المطالعة والدرس. إلا أنَّ ابن خلدون، بهذا التفسير، يستبقُ الأحداث. فما جرى بعد ذلك، يؤكد أنه كان حتى ذلك الوقتِ منغمساً في أحلامِ السُّلطةِ السياسية. فرغمَ اعتذارِه عن الوزارةِ أخذ يتصلُ بالقبائلِ ويُحرّضُها على أبي العباس. بل إنه عندما تحرَّك أبو حمُّو بجيشهِ للقاءِ أبي العباس، عَمِلَ بنشاطٍ منقطعِ النظير، على حشدِ زعماءِ بسكرةَ وقواتِهِم والخروجِ بهم لنُصْرةِ جيشِ أبي حمّو. وبالرغم مِن هذا، فقد تغلّبت جيوشُ أبي العباس، فعادَ ابنُ خلدون أدراجَه إلى بسكرة، مترقباً فرصةً أخرى للثأر.

وتاريخُ ابنِ خلدون، للسنواتِ الخمسِ التالية، محموم، غايةٌ في الاضطراب. سفَرٌ إلى بَلاطِ أبي حَمّو، محاولةٌ للهربِ إلى أسبانيا في أعقابِ هجومٍ من سلطانِ المغرب الأقصى على تلمسان. . اعتقالُه أثناءَ هربِه، ثم الإفراجُ عنه. . محاولاتٌ غيرُ

جادةٍ للتفرغِ للدرسِ والتحصيلِ تقْطعُها نداءاتُ السلاطين للمساعدةِ في كسبِ قبائلَ واستعداءِ قبائلَ أخرى.. تارةً يجدُ نفسَه في معسكر أبي حمّو.. وتارةً أخرى يجدُ نفسَه عامِلاً في معسكرِ أعداءِ أبي حمّو.. دَوّامةٌ متصلةٌ لا تهدأ.

حتى مدينةُ بسكرة، التي كانت دائماً ملاذَه الأمينَ كلّما تعقّدت الأمور.. أصبحت إقامتُه بها مستحيلة، بعد أن ظنّ به أميرها الظُّنون، وتوهَّم أن ابنَ خلدون يدبّرُ انقلاباً ضدّه، فغادرهَا مع أسرتِهِ وبعضِ أنصارِه إلى تِلْمِسان حيث يقيمُ السلطانُ عبدُ العزيز، وأثناءَ الرحلةِ يَبْلُغُهُ نبأ وفاةِ السلطان عبدِ العزيز، وانتقالُ ابنِه وخليفتِه السلطان السعيد بمقرّ السلطنةِ إلى فاس. فيقررُ السفرَ إليها. ويعلَمُ بذلك السلطانُ أبو حَمّو الذي يَنْقِمُ على ابنِ خلدون لتعاونِهِ في المرحلةِ الأخيرةِ مع منافسيه، فيحرّضُ بعضَ الأشقياء، لينقضُّوا عليه في الصحراء، ويَنْهَبُوا متاعَه، ومتاعَ من كانوا بصحبتِه، ويتركوهم جميعاً عرايا، يواصلون رحلَتهم إلى فاس، فيصلونها في حالةٍ يُرثى لها.

وحتى عندما يقيمُ بفاس، متفرّغاً للدراسةِ والتحصيل، دون أن تكونَ له صلةٌ بالحياةِ السياسية، يحدثُ بها انقلابٌ يودِي بسلطانِها، ويَشِي به البعضُ لدى سلطانِها الجديد، فيَسجُنه حيناً، ثم يُفرِجُ عنه. وما أن يخرج من السجن، حتى يقرر السفرَ إلى الأندلسِ مرةً ثانية، تاركاً أسرتَه في فاس، لكنَّ الدسائسَ تلاحقُه، فيضطرُ سلطانُهَا إلى إبعادِه عَنْ غَرْنَاطة، وإرساله إلى تلمسان.

في طريقِ العودةِ من هذه الزيارةِ المبتورةِ إلى غرناطة، يتخذُ

ابنُ خلدون القرارَ القاطعَ في شأنِ حياته.. لقد ضاقَ بلعبةِ السياسة والسلطةِ والحُكم، وشبعَ من مفاجآتِها وقررَ جاداً هذه المرة... التفرغَ للإنتاجِ العلميّ.

لقد أحسَّ أن الزمنَ تغيّر، وأنه في ظلّ الظروفِ السائدةِ في المغربِ العربي، لن يستطيعَ أن يجدّدَ أمجادَ أسلافِه من رجالِ السياسةِ والحُكم، أو يصلَ إلى ما وصلوا إليه.. فكان قرارُ الاعتزال.

في قلعةِ ابنِ سَلاّمة

يصل ابن خلدون إلى تِلمسان، فيجدُ بها صديقَه وخصمَه السابقَ السلطانَ أبا حَمّو، الذي يجددُ صداقتَه بابنِ خلدون، في مقابلِ تكليفِه بمهمةٍ سياسيةٍ لدى بعضِ القبائِل.

هنا... وفي ضوءِ القرارِ الحاسمِ الذي اتَّخذَه ابنُ خلدون باعتزالِ الحياةِ السياسية والتفرغِ للإنتاجِ العلمي.. يتظاهرُ بالاستجابَةِ لمطلبِ السلطان، ويخرجُ من تلمسان متّجهاً إلى الوجهةِ التي أوفدَه إليها السلطان.. لكنَّه، وفي منتصف الطريق، ينحرفُ في اتجاهِ أصدقائِه قبائلِ أولادِ عَريف، فَيَلقَوْنه بالاحتفاءِ والتكريم، ويتوسَّطونَ لَدَى السلطان أبي حَمّو حتى يقبلَ اعتذارَه ويرسلَ إليه عائلتَه فينزلون جميعاً في مكانٍ يقالُ له قلعةُ ابنِ سلامة ضيوفاً على أولادِ عريف.

قضَى ابنُ خلدون في ذلك المكانِ ما يقربُ من أربعةِ أعوام، تمتعَ فيها بالاستقرارِ والهدوء، وتفرغَ خلالَها للدراسةِ والتأليف.

فأنجزَ مؤلفَه التاريخيَّ الشهير، ذلك البحث الذي استحقَّ عليه لقبَ «مؤسّس علم الاجتماع». وبدأ بكتابةِ مُقدِّمةٍ لذلك البحثِ اشتُهرت فيما بعد باسم «مقدّمة ابنِ خلدون» تناولَ فيها شؤونَ المجتمعِ الإنسانيّ وقوانينَه.

كان ابنُ خلدون في ذلك الوقت قد بلغَ الخامسةَ والأربعينَ مِنْ عمرِه، فجاءَ قرارُ التفرغِ للإنتاجِ العلمي، في الوقتِ الذي نَضِجَت فيه معارفُه، وتفاعلت مع خِبْراتِه العلميةِ الواسعةِ في شؤونِ البشرِ ومجتمعاتِهم.

انتهى ابنُ خلدونِ من كتابةِ المقدِّمةِ في خمسةِ أشهرٍ فقط، وفي هذا يقول: «أقمت بها (أي قلعة ابنِ سلامة) أربعةَ أعوام، متخلياً عن الشواغلِ كلِّها، وشرعَت في تأليفِ هذا الكتاب، وأنا مقيمٌ بها، وأكملتُ المقدمةَ منه على ذلك النحوِ الغريبِ الذي اهتديت إليه في تلك الخَلْوة، فسالت فيها شآبيبُ الكلامِ والمعاني على الفِكر، حتى امْتَخَضَتْ زُبدتُها، وتألّفتْ نتائجُها».

أخذَ ابنُ خلدون يراجعُ ما كتبَه، ثم يواصلُ الكتابة، ويتفرغُ للمراجعة، حتى انتهَى من الشكلِ المبدئيّ لكتابِه الشهير «كتابُ العِبَر، وديوانُ المبتدأِ والخَبَر، في أيامِ العربِ والعجمِ والبَربر، ومن عاصرَهم من ذَوِي السّلطانِ الأكبر».

اعتمدَ ابنُ خلدون في عملِه على ذاكرتِه، وعلى الخِبْرات التي مَرّت به في حياتِهِ الحافلة، وعلى المراجعِ القليلةِ المتوافرةِ في مكانِهِ ذلك. غيرَ أنه وصَلَ في عملِه إلى مرحلة، أحسّ فيها بحاجتِهِ الشديدةِ إلى المراجعِ التي لا بدَّ أن يعتمدَ عليها في تأصيلِ

بحثه. وأدرك استحالةَ الاستمرارِ في عملِهِ بقلعةِ ابن سلامَة، فاعتزمَ العودة إلى وطنِهِ الأصليّ تونس، حيث يجدُ في مكتباتِها، كلَّ ما يحتاجُ إليه من معلومات.

كان سلطانُ تونسَ في ذلك الوقتِ هو أبو العباس، الذي سَبَقَ لابنِ خلدون أن فرَّ منه إلى بسكرة، وشارك في تأليبِ القبائلِ عليه أكثرَ من مرة. ولذا كان من الضروريّ أن يكتبَ إليه طالباً الصَّفح، والإذنَ بالقدومِ إلى تونس.

وفي عام ١٣٧٨ م (٧٨٠ هـ) غادرَ ابنُ خلدون قلعَةَ ابنِ سلامة متّجهاً إلى تونس، بعدَ أنْ وَصَله عفوُ السلطانِ وموافقتُه. وصلَ ابنُ خلدون إلى مَسْقِطِ رأسِه بعدَ غَيبةٍ طويلة، فهيأَ لأسرتِهِ مقاماً مستقراً، وعكَفَ على البحثِ والاطِّلاع، حتى أتمَّ مؤلَّفَه، ونَقَّحهُ وهَذَّبَه، ورفعَ نُسخةً منه إلى السلطانِ أبي العباسِ في أوائلِ عام ١٣٨٢ م (٧٨٤ هـ)، فتقبَّلَها السلطانُ قَبولاً حسناً.

يواصلُ ابنُ خلدونَ عملَه العِلمي، ويقومُ في نفسِ الوقتِ بالتدريسِ لطلبةِ العِلم، وقد اتّسعت حَلْقَةُ الدرسِ الخاصةُ به، وهاجرَ إليها طلابُ العلمِ في الحَلَقَاتِ الأخرى، ومن بينها حلْقَةُ رئيسِ قُضاة تُونس. فأكلت الغَيْرة قلبَ رئيسِ القضاةِ، وأخذ يَدُسُّ لابنِ خلدون عندَ السلطان أبي العَباس، ويحذِّرُه من عودةِ ابنِ خلدون إلى سابقِ عهدِهِ في تأليبِ القبائلِ وإثارةِ الاضطِرابات.

وكان السلطانُ قد اصطحبَ ابنَ خلدون في حربٍ من حروبِه، وقبلَ ابنُ خلدون مرغماً، على سبيلِ المجاملة. فخشيَ ابنُ خلدون أن يعودَ السلطان إلى اصطحابِهِ في حربٍ تالية، والزجِّ به

مرةً ثانيةً في عالمِ السياسةِ الذي ضاقَ به. كما أحسَّ بالأحقادِ التي ينفُثُها رئيسُ القضاة، فقررَ مغادرة تونس. وكان أسلمَ عذرٍ يقبلُه السلطان، هو أن يطلبَ السماحَ له بالحجِّ إلى بيتِ الله، وقضاءِ الفريضة.

ما إن وافقَ السلطان، حتى انطلقَ ابنُ خلدون إلى ميناءِ تونس، يبحثُ عن أولِ سفينةٍ مُبحرةٍ، فوجدَ سفينةً لتجارِ الإسكندرية وقد تأهّبت للإبحارِ إليها. وفي موكبٍ مَهيب، توجَّهَ جمعٌ من الأعيانِ والأصدقاء والتلاميذِ لوَدَاعِ الأستاذِ الجليلِ عبدِ الرحمنِ بنِ خلدون، وكأنهم يُحسّون أن وَدَاعَهُمْ له، هو الوداع الأخير. هكذا ودّع ابنُ خلدون الشاطىء التونسي، في طريقِهِ إلى الإسكندرية عام ١٣٨٢ م.

ابنُ خلدُونَ في مصر

وصلَ ابنُ خلدون إلى ثَغرِ الإسكندريةِ في يومِ عيد الفِطر، وبقيَ فيها شهراً، ثم قررَ السفرَ إلى القاهرة. فقد كان أملهُ كبيراً في أن يجدَ فيها التشجيعَ على مواصلةِ جُهدِهِ العلميّ، وهي في ذلك الوقتِ رايةُ التفكير الإسلاميِّ في المشرقِ والمغربِ العربيّ.

إلاَّ أن القاهرةَ كانت تعرفُ ابنَ خلدون قبلَ أن يصلَها، فقد كان لدَى علمائِها معرفةٌ كاملةٌ بشخصيّتِه وبحوثِه التاريخيةِ والاجتماعية، ولا سيما مُقدِّمتُه التي أُعجبت بها الأوساطُ العلميةُ بالقاهرة، لما تَحتويهِ من آراءٍ مبتكرةٍ في شؤون الاجتماع، ولذا فقد لقيَ ابنُ خلدون في القاهرةِ الترحيبَ الحارَّ والاستقبالَ الرائعَ والتفَّ حولَه عددٌ كبيرٌ من العلماءِ وطالبي العلم. فاستقرَّ في وَعْيِهِ نِداء..

هنا مكاني. وقد أثبتت الأيامُ صِدقَ ذلك النداء، الذي استجابَ له عالِمُنا الكبير، الذي كان يومذاك قد بلغَ الثانيةَ والخمسين من عمرِه.

ولقد ساعَدَ ابنِ خلدون، على مواصلةِ الإنتاجِ والبحثِ العلمي، أنَّ الأوضاعَ السياسيةَ والحَضَاريةَ في القاهرة، كانت تختلفُ اختلافاً كلياً عمّا عهِدَه في المغربِ العربي. ومن ثمَّ أصبحَ من المستبعدِ أن تعاودَه رغبةُ العملِ السياسيِّ التي استهلكت الجانبَ الأكبرَ من عمرِه. كما أن الجوَّ العلميَّ السائد، ساعدَه على استثمارِ حصيلتِهِ العلميةِ ومضاعفَتِهَا، مما جعلَه يعيدُ النظرَ في كثيرٍ مما كتبَه قبلَ وصولِهِ إلى القاهرة.

بدأَ ابنُ خلدُون حياتَهُ في مصر، بأن اتخَذَ من أروقةِ الجامعِ الأزهر، مدرسةً يلتقي فيها بتلامذتِهِ ومريديه. وكان الأزهر، في ذلك الحين، أنسبَ معاهدِ العلمِ في القاهرة للدراساتِ العاليةِ التي يتكلمُ فيها. ونتيجةً لتمكُّنِه العلمي، وبراعتِهِ في الحديث، تضاعَفَ الإقبالُ على دروسِه، وفي هذا يقولُ تلميذُهُ المؤرخُ الشهيرُ المَقْريزيّ «في هذا الشهرِ، قَدِمَ شيخُنَا أبو زيدٍ عبدُ الرَّحمنِ بنُ خلدون من بلادِ المغرب، وتصدَّى للاشتغالِ بالجامعِ الأزهر، فأقبلَ الناسُ عليه، وأُعجِبُوا به».

وقبل مقدَمِ ابنِ خلدون بعشرةِ أيام، وليَ مصرَ السلطانُ الظاهرُ برْقُوق. وكانت قد وَصَلته أخبارُ ابنِ خلدون وشُهرتُهُ، فأكرمَ وِفادَتَه وعيَّنه لتدريسِ الفقهِ المالكيّ، وفي عام ١٣٨٤ م (٧٨٦ هـ) غضبَ السلطانُ برقوق على قاضِي القضاةِ المالكية، فعزلَه وعيَّن ابنَ خلدون مكانَه.

والغريبُ أن منصبَ قاضِي قضاةِ المالكيةِ هذا، كان الظاهرةَ الوحيدةَ التي تربطُ بين حياةِ ابنِ خلدون في القاهرة، وحياتِهِ السابقةِ في المغرب. كان هذا المنصبُ مَطْمعاً للكثيرين من علماءِ مصر، فتعرَّضَ ابنُ خلدون بسببِه لكثيرٍ من الدسائِسِ والوِشاياتِ، وظلَّ المنصبُ يتأرجَحُ بينه وبين خصومِه، يتولاّه إذا انتصرَ عليهم، ويتولاه أحدُهم إذا انتصروا عليه، حتى إنه تولَّى هذا المنصبَ وأُبعدَ عنه ثماني مراتٍ في نحوِ أربعِ سنين. ولقد ساعدَ على عزلِهِ من المنصبِ في أغلبِ المرات، أنه كان صارماً في عدالتِه، يستوي أمامَه الكبيرُ والصغير، لا تأخذُهُ في الحقِّ لومةُ لائم. وحدثَ هذا في زمن، كان يسودُ القضاءَ في مصر، فسادٌ وميلٌ إلى الأغراض، فكانت صَرامةُ ابنِ خلدون، سبباً في إثارةِ السُّخطِ عليه من كلِّ ناحية.

كان ابنُ خلدون، عندما استقرَّ به الحالُ في القاهرة، قد توسّلَ إلى السلطان برقوق، أن يشفعَ له لدى سلطانِ تونسَ في إرسالِ أُسرتِهِ إلى مصر، وفعل، فأُطلِقَ سراحُ الأسرة، وركبت البحرَ إلى مِصر. ولم تكدِ السفينةُ تدخلُ ميناء الإسكندرية، حتى أصابَها ريحٌ قاصفٌ، فغرِقتْ بمن فيها. في لحظاتٍ قصيرةٍ فقدَ ابنُ خلدُون زوجتَهُ وأولادَه جميعاً، فكان وقعُ المصابِ عليه شديداً، ورغبَ في أن يعتزلَ الحياة، حتى يقضِيَ ما بقيَ من عُمْرِهِ في هدوء.. إلا أنّ القدرَ كان ما يزالُ يُخبّيءُ له في جُعْبَتِهِ مزيداً من الأحداث.

في عام ١٣٨٨ م (٧٨٩ هـ) اعتزمَ ابنُ خلدون أداءَ فريضةِ

الحج، فاستأذَنَ من السلطانِ وسافرَ إلى الأراضي المقدّسة، يؤدِّي فرضاً، كان قد انتواه عندما بارحَ تونس. وعند عودتِهِ إلى القاهرة، اقتصرَ نشاطُهُ على إلقاءِ الدروسِ على تلاميذِه.

لم تؤثر على حياتِهِ حادثةُ خَلْعِ السلطانِ بَرْقوق عن العرشِ ولا عودتُهُ إليه، ولا وفاةُ السلطان، وتولِّي ابنهِ الناصِرِ فَرَج.. فقد كان نشاطُهُ العلميُّ والتعليميُّ متصلاً، ومنصبُ قاضِي القضاةِ ما زالَ يتأرجحُ بينَه وبين خصومِه. وكلُّ ما استجدَّ على حياتِهِ في تلك الفترة، هو سفرُهُ إلى فلسطينِ لزيارةِ بيتِ المقدس، ومشاهدةِ آثارِ هذه البلاد، تلك الزيارةُ التي عادَ منها عام ١٣٩٩ م (٨٠٢ هـ).

تيمورلنك.. على الأبواب

في عام ١٤٠٠ م (٨٠٣ هـ)، وصلَت الأنباءُ بأنَّ الغازِيَ التَّتري تيمورلنك، قد وصلَ بجيوشِهِ إلى الشَّام، واستولَى على مدينةِ حلب، فاستباحَهَا، وأعمل فيها السَّفكَ والنهبَ والتّخريب. وأنه في طريقهِ إلى دمشق. كانت الشامُ في ذلك الوقتِ تابعةً لسلطانِ مصر. ففزعَ الناصرُ فَرج، وأسرعَ بجيشِهِ لصدِّ الغازي. ورغم أن ابن خلدون كان قد قاربَ السبعين من عمرِه، فقد اصطحبَه السلطان فيمن أخذَ من القُضاة والفقهاء... وما أنْ وصلَ جيشُ مصرَ إلى الشام، حتى التحم جندُ مصر مع جندِ الغازي في معركةِ ثَبَتَ فيها المصريون، فتوقف تقدُّمُ الغازِي، وبدأت المفاوضاتُ لانسحابِ الغازي تيمورلنك من الشام. غير أنَّ السلطان علمَ بتسللِ بعضِ الأُمراء المصريين، وعودتِهم خِفيةً إلى القاهرة، كما عَلمَ أنهم يدبّرون مؤامرةً لخلعِه، فتركَ المفاوضات والحرب،

وعادَ إلى القاهرةِ متعجّلاً، ليدركَها قبلَ أن ينفّذَ الأمراءُ خُطَّتَهم. وترك أمرَ دمشقَ في أيدي قادةِ الجيش.

وبعدَ تشاور، أدركَ القادةُ العسكريون، أنّ مقاومةَ تيمورلنك، ستؤدِّي إلى تدمير دمشق كما دُمّرت حَلب، واستقرَّ رأيُهم على المفاوضة... وكان رسولُهم إلى تيمورلنك.. هو ابنُ خلدون. في فجرِ اليوم التالي قامَ الجندُ بربطِ ابنِ خلدون من وَسَطِهِ بالحبال، ثم دَلُّوه من فوقِ سورِ مدينةِ دمشق، ليتلقّاهُ جندُ تيمورلنك الذين كانوا يُحاصرون المدينة. وكان على رأسِ مستقبليه نائبُ تيمورلنك، «شاه ملك» الذي عَيّنه تيمورلنك والياً على دِمشق، حتى قَبلَ أن يتِمّ له فتحُها، للتعبيرِ عن ثقتِهِ في قدرةِ جيشِه. هَبَط ابنُ خلدون من فوقِ السور ليجدَ هذا الاستقبالَ الحافلَ من جُندِ تيمورلنك، ووجدَهم يُقدِّمون إليه دابّةً يركبُها ويقطعُ بها المسافةَ القصيرةَ بين سُورِ دمشق ومعسكرِ تيمورلنك.

عندما يقتربُ الركبُ من مقرِّ الغازي، يأخذُ ابنُ خلدون في التلّفتِ حولَه، متطلعاً إلى هذه المدينةِ المصغّرة التي أنشأَها تيمورلنك من الخيامِ... والتي تميَّزت في وسطِهَا خيامُه، بما فيها من زركشةٍ ونقوشٍ ملوَّنة، وقد ارتفعت اعمدتُهَا مَكْسُوَّةً برقائقِ الفضة. سُمِحَ لابنِ خلدون بالمثولِ بين يدي تيمورلنك. ثم استدعَى من بطانتِهِ فقيهاً يسمَّى عبدَ الجبارِ بن النُّعمان، فتولَّى الترجمةَ بينهما.. وبدأَ الحِوَارُ المتصلُ الذي استمرَّ مدةَ أربعين يوماً، ولكنه انقطعَ عندما اقبلَ على خيمةِ الغازي بعضُ فرسانِهِ فرِحِين مهلّلين، يُعلنُونَ سقوط دمشق.

لم يجدِ ابنُ خلدون مبرراً لبقائِه في دمشقَ بعدَ هذا، فعادَ إلى القاهرة، إلاَّ أنَّ القدرَ كان قد وضعَ نهايةً خاصةً لهذه الرحلة الفاشلة، ففي طريقِ العودةِ وبالقربِ من مدينةِ صفد، هاجمَ البدوُ القافلة، وسلبوا كلَّ ما فيها، وتركُوا ابنَ خلدون وصحبَه عُراةً لا يَستُرُهم شيء. وسط مظاهِرِ الغيظِ والأسفِ والخَجل، التي شَمَلَت جميعَ من كان بالقافلة، ارتسمت ابتسامةٌ على وجهِ الشيخِ ابنِ خلدون، مما أثارَ دهشةَ الجميع. وتركهم الشيخُ على حالِهِم، فلم يخبرْهم بأنَّ هذا الحادثَ أعاد إلى ذاكِرَتِه، حادثاً شبيهاً حصلَ بنفسِ التفاصيل، وهو في الطريقِ إلى مدينةِ فاس، هارباً من بسكرة.

عاد ابنُ خلدون إلى مصر، يتسلَّى في آخرِ أيامِه، بتولّيهِ منصبَ قاضِي القضاةِ المالكية، ثم عَزلِه منه.. دون أن يبذلَ جهداً، سواءً في السعي إليه، أو الاحتفاظِ به.. فقلبُه كان قد تعبَ من فرطِ ما خَفَق.. وصورُ ما مرَّ به من أحداثٍ تلاحقُه، حروبٌ ودسائسُ وسجونٌ ومُطاردات.. مرةً يرى نفسَه في خيرِ مَلْبَسٍ يتولّى رئاسةَ الوزارة، بكلّ ما يحيطُها من نفوذٍ وأُبَّهة.. ومرةً أخرى يرى نفسَه عارياً بلا دابةٍ أو زاد، يسيحُ في الصحراءِ الجزائريةِ باحثاً عن الطريقِ إلى فاس.. ومرةً ثالثةً يجدُ نفسَه في سجنِ فاس يجترُّ آلامَه، ويصنعُ منها أبياتَ شعر.

وفي عام ١٤٠٦ م (٨٠٨ هـ)، آن للروحِ المصطخبة، أن تهدأ، وأن تفارقَ الجسدَ الذي أعْيتْه الخُطوب والأحداثُ والسُّنون، وأن تصعدَ إلى باريها. فوافتْه المنيةُ وقد بلغَ من العمرِ ٧٤ عاماً.

ودُفِنَ ابنُ خلدون في مقبرةٍ من مقابرِ الصّوفيةِ في بابِ النصر.. في القاهرةِ التي كتبَ ودرسَ وعلَّم فيها، ما يقربُ من خمسةٍ وعشرين عاماً.

بهذا، انتهت حياةُ عالمٍ جليل.. قدَّمَ للبشريةِ باجتهادِه الشخصيّ، علماً كاملاً جديداً.. هو علمُ الاجتماع.

من أعمالِ ابن خلدون

رغمَ أنّ ابنَ خلدون لم يؤلفْ إلاّ في مادّتَيْ تَخَصُّصِه، وهما الاجتماع، والتاريخ، إلاّ أن ما كتبَه في الباب السادسِ من مقدمتِهِ عن العلوم، وأصنافِها، وما كتبَه في البابِ الأولِ عن الجغرافيا، يكشفُ عن اطِّلاعٍ واسعٍ يمتدّ إلى مختلفِ العلوم. كما يتّضحُ ذلك، مما كتبه عن علومِ الدين وعلمِ الكلام، وعلومِ المنطقِ والإلاهيّاتِ والفلسفةِ والتصوفِ وعلمِ اللغة وآدابِها، فضلاً عمّا كتبَه عن العلومِ الرياضية والطبيعية والطبِّ والفلك.

ولم يصلْ من آثارِ ابنِ خلدون إلاّ كتابُ «العِبَر» وملحقُه في التعريفِ بابن خلدون. لكنّ كتابَ «الإحاطة في أخبارِ غرناطَة»، يقول إنّ ابنَ خلدون: شرحَ قصيدةَ البُرْدةِ في مدحِ الرسولِ عليه السلام، ولخّصَ كثيراً من كتبِ الفيلسوفِ الأندلسي «ابن رشد»، وألّفَ كتاباً في الحساب.

علمُ الاجتماع:

وكتاباتُ ابنِ خلدون في هذا المجال، والتي أوقف عليها مُقدّمتَه، تُعتَبَرُ من أهمِّ إنجازاتِه، ومن المعِ مظاهرِ عبقريتِه، وإليها

ترجعُ شهرتُهُ التي ذَاعَت في الشرقِ والغرب.

لقد كَشَفَت بحوثُ ابنِ خلدون في هذا المجال، عن علم جديدٍ لم يَسْبِقْهُ أحدٌ إليه، كما أنه توصّلَ إلى حقيقةٍ لم ينتبه إليها أحدٌ من قبلِه، وهي خضوعُ الظواهِرِ والأحداثِ الاجتماعيةِ لقوانينَ ثابتةٍ تُشبهُ القوانينَ التي تخضعُ لها الظواهرُ الطبيعية. كما في علمِ الفلكِ والحيوانِ والنباتِ والطبّ.. وقد أطلقَ ابنُ خلدون على علمِ الاجتماعِ اسمَ «علم العُمرانِ البَشريّ».

ويدركُ ابنُ خلدون أنّ اكتشافَه هذا لم يسبقْه إليه أحد، فيقول: «واعلمْ أنّ الكلامَ في هذا الغرضِ مُستحدثُ الصَّنعة، غريبُ النَّزعة، غزيرُ الفائدة، أعثرَ عليه البحث، وأدَّى إليه الغَوْص».

ومن أهمِّ الأسبابِ التي أدّت بابنِ خلدون إلى إنشاءِ هذا العلمِ الجديد، حرصهُ على تخليصِ البحوثِ التاريخيةِ من الأخبارِ الكاذبة، وعلى إنشاءِ أدلةٍ يستطيعُ بفضلِها الباحثون في علمِ التاريخ، أن يميّزوا بين ما يحتملُ الصدق، وبين ما لا يمكنُ أنَ يكونَ صدقاً. وهو يُرْجعُ اعتناقَ المؤرخين للأخبارِ الكاذبة، إلى الهَوى الشخصيّ للمؤرّخ، وإلى الرغبةِ في التقربِ من الحكام، وإلى الجهلِ بالقوانينِ التي تخضعُ لها الطبيعة، والقوانينِ التي تخضعُ لها ظواهرُ الاجتماعِ الإنسانيّ.

وكان ابنُ خلدون في إثباتِه لنظرياتِه الاجتماعية، يَتْبَعُ نفس ما يُتبعُ في إثباتِ النظريات الهندسية. فهو يذكرُ المنطوقَ كعنوانٍ للفصل، ثم يقومُ بالبرهنةِ عليه وامتحان سلامتِه في جميعِ الأحوال.

علم التاريخ:

ولابن خلدون في كتاباتِهِ بحوثٌ في التاريخ، وخاصَّةً تاريخَ الأُممِ العربيةِ والبربرية.

ويُعدُّ تاريخُ البربرِ الذي عرضَه ابنُ خلدون في كتابِه، أنفسَ الأقسامِ التاريخيةِ في مؤلَّفِه، وأوفرَها طرافة، وأقواها تحقيقاً. ولذا يعتبرُ كتابُه هذا، أهمَّ مرجعٍ للباحثين في تاريخِ هذه الدولِ والشّعوبِ في العصورِ التي يتحدّثُ عنها، وقد نُشرت له ترجمةٌ فرنسيةٌ كاملةٌ بالجزائرِ عا ١٨٥٢، ثم أعيدَ طبعُ هذه الترجمةِ في باريس عام ١٩٢٥.

ويمتازُ ابنُ خلدون عن أسلافِه، بعدمِ اعتمادِه على المؤرّخين الخصوصيين، ولا على وثائِقِهم، ولا على ما يصلُه من الحكّامِ الذين اتصلَ بهم، نظراً لكثرةِ ما يدخُلُ على هذه المصادرِ من زَيْفٍ وتزويرٍ. ولكنّه تميزَ باعتمادِهِ على تجربتِهِ الشخصية، عن طريقِ اختلاطِهِ بالناس، ومعايشتِهِم كمصدرٍ هامٍ من مصادِرِه.

وكانت المعلوماتُ التاريخيةُ عندَ ابن خلدون، هي المادةُ الخام، يُجري عليها تأملَه ودراستَه وتحقيقَه، لِيُنَقِّيهَا من الشوائبِ والمبالغات، ثم يُصنِّفُها ويرتبُها، ويعيدُ تسجيلَها بعيداً عن الهوى، أو الانفعالِ العاطفيّ.

ومما يتميزُ به ابنُ خلدون، تأثُره بالمنهجِ العلميّ في البحثِ التاريخيّ، ولعلَّ ذلك يعود إلى المعارفِ الرياضيةِ التي بدأ بدراستِها، فساعدت على تنظيمِ تفكيرِه. لهذا كانت نظرتُه التاريخيةُ شموليةً غيرَ ضيّقة، تدخُلُ في الاعتبارِ كافةَ العواملِ السياسيةِ

والاقتصاديةِ والجغرافيةِ والاجتماعية.

ولعلَّ هذا هو ما دعا المؤرخَ والمفكر أرنولد توينبي إلى القول: «انَّ نجمَ ابنِ خلدون يبدو أكثرَ تألّقاً في كثافةِ الظّلام.. إن ابنَ خلدون يبدو وحدَه نقطةَ الضوءِ الوحيدةَ في ذلك الأُفق». وهو ما دَعَا المؤرخَ العالمَ الإنجليزيّ جوردون تشايلد إلى القول: «إنَّ مقدمة ابنِ خلدون، وآراءَه في التاريخ، قد أفاد منها إلى أبعدِ حد، كلُّ مؤرخٍ قد تصدَّى لعلمِ التاريخ. وبصماتُ ابنِ خلدونِ تبدو واضحة على أوراقِ مئاتِ الدراساتِ التي كُتبت حولَ التاريخ، وفي التاريخ».

فنُّ السيرةِ الشخصية:

ابنُ خلدون هو أول باحثٍ عربيٍّ يكتبُ عن نفسِه ترجمةً رائعةً مستفيضة، يتحدثُ فيها عن تفاصيلِ ما جرى له، وما أحاطَ به من حوادث، من يومِ نشأتِهِ إلى ما قُبيلِ مماتِه، ويتحدثُ في ذلك بدقةِ المؤرخِ الأمين، حتى في الأمورِ التي يحرِصُ الناسُ عادةً على كتمانِها، لما تكشِفُه من نواقصَ أو مَثالِب. يتضحُ هذا لكلِّ من يقرأُ البابَ الذي أسماه، «التعريف بابنِ خلدون مؤلِّفِ هذا الكتاب».

ابنُ سينَا

«أعظم علمَاء الإِسلام»



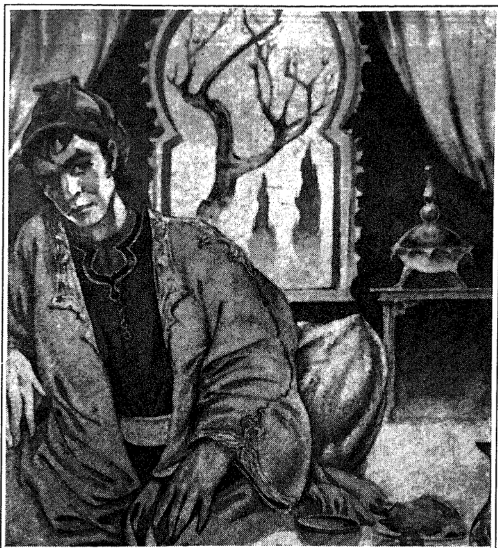
هُوَ

الشيخ الرئيس

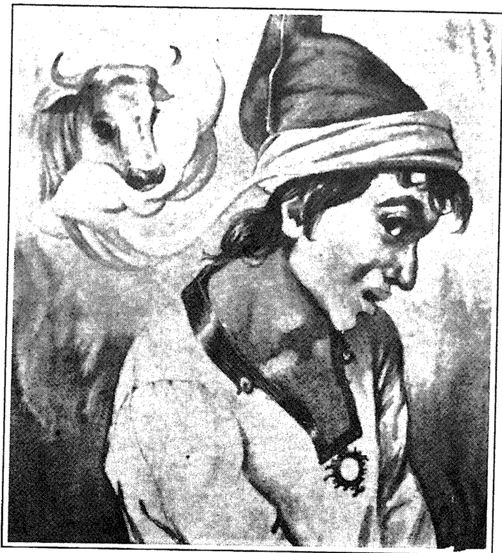
الحسَين

ابن عبْد اللَّه

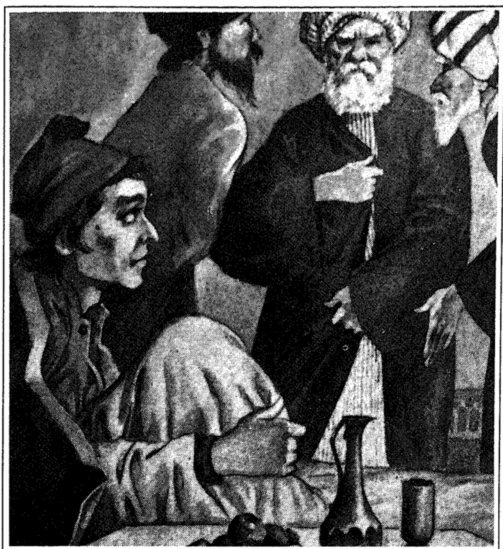
ابْن سينا



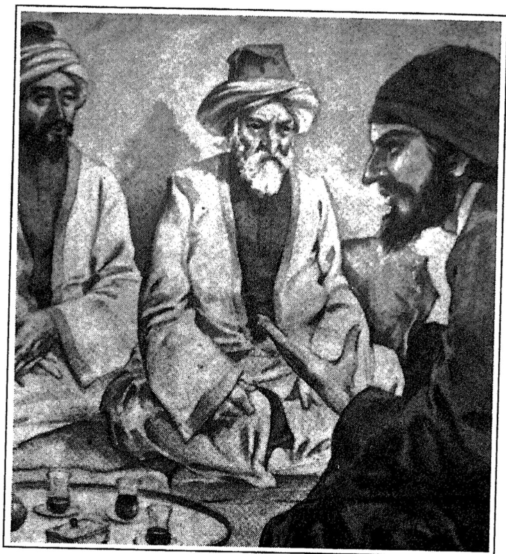
يُحكَى أَن أميراً من أسرةِ بني بُوَيْه، التي حكمت بلادَ فارس في القرنِ العاشرِ (القرنُ الرابعُ الهِجريّ)، أُصيبَ بمرضٍ عصبيٍّ استَعصَى على خبرةِ أطباءِ عصرِه. وادَّى به ذلك المرضُ العصبيُّ إلى الامتناعِ عن تنَاولِ الطّعام.



أخذت حالةُ الأميرِ تَسوء، حتى توهَّم أنه تحوَّلَ من إنسانٍ إلى بقرة، فكان يُقلِّدُ صوتَ البقرةِ وحركاتِها، ويصرُخُ فيمن حولَه قائلاً «اذبحوني، وأَطعِموا الناسَ لحمي. . .».



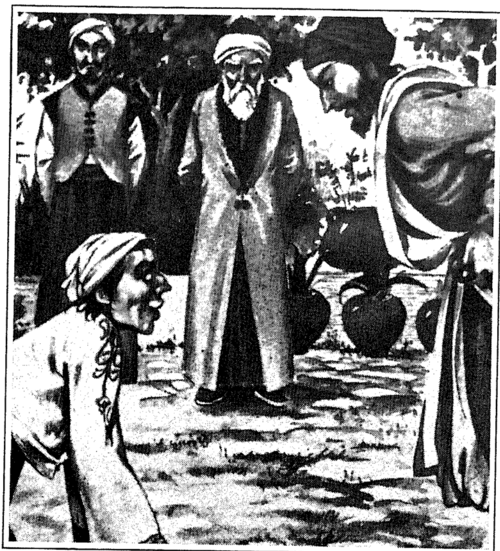
توالَى على فِراشِ الأمير، العديدُ من الأطباء، إلا أَنهم عَجِزوا جميعاً عن معالجتِه.



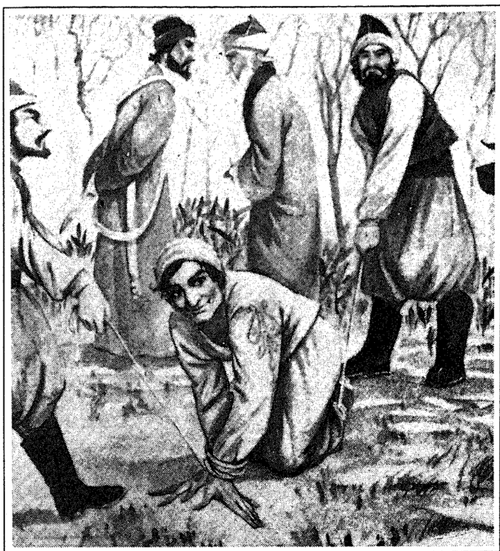
وَسَمِعَ أهلُ الأميرِ عن شابٍّ موهوب، اسمُه أبو عليّ الحسينُ بنُ سينا، وَفَدَ حديثاً من إقليمِ (جَرْجان)، واشتُهِرَ بتمكّنِه من علومِ الطّب، فذهبوا إليه وقصُّوا عليه حكايةَ المرضِ الغَريب، الذي وَقعَ الأميرُ فريسةً له.



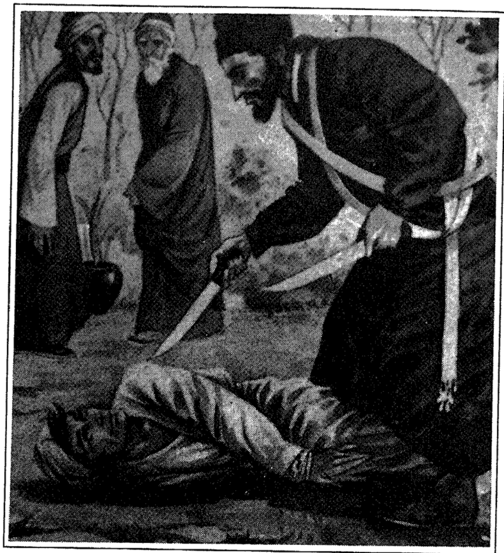
ذهبَ ابنُ سينا إلى بيتِ الحاكم، ومعه بعضُ أَتباعِه، ووقفَ في رَدْهةِ البيت يَشحذُ سِكّينين كَبيرين، ثم صاحَ قائلاً «أين البقرةُ التي تُريدون منّي ذَبحَها؟...».



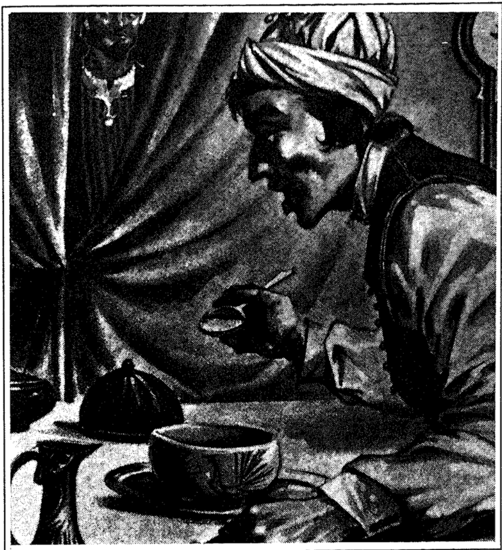
فلما سمعَ الأميرُ ذلك، اغْتَبط، وقَلّدَ صوتَ البَقرة.. واندفعَ نحوَ رَدْهةِ البيت، حيث ينتظرُ ابنُ سينا.



أشارَ ابنُ سينا إلى أَتباعِه، فَقَيّدوا
الأمير، وطَرحوه أرضاً.



وأخذَ ابنُ سينا يَجُسُّ جِسمَ الأميرِ بطرَفِ السِّكين، ثم قال لأهلِهِ «إن هذه البقرةَ نحيفةٌ هزيلةُ الجِسم، لا تصلحُ غِذاءً لأحد... فأطعموها حتى تسمَن، وتُصبحَ صالحةً للأكل... وعندئذ نَحضُرُ لذبحِها...».



ومن الغريب، أن الأميرَ بدَا بعدَ ذلك يُقْبلُ على تناولِ الطعام، وكانوا يضعون له فيه خفية، أدوية يصفها ابن سينا.



شيئاً فشيئاً تحسَّنت صحةُ الأميرِ حتى بَرِىءَ من مَرضهِ، بتأثيرِ العلاجِ النفسيِّ الذي قام به ابن سينا. وبهذا، كان ابنُ سِينَا من أوائلِ الذين أَدخلوا العلاجَ النفسيّ، بين الأطباءِ العرب.

ذلك العَصر

في أيامِ الخليفةِ العباسيِّ هارون الرّشيد، بَسَطت الدولةُ العباسيةُ نفوذَها القويَّ على أنحاءِ الدولةِ الإسلامية، وأصبحت للرشيدِ امبراطوريةٌ واسعة، تمتدُّ من أفغانستانَ وبلادِ فارس، إلى الجزيرةِ العربية، ومن العراقِ إلى الشّام إلى مِصر. لم يجرُؤْ أحدٌ من الوُلاةِ أن يخرجَ عن طاعةِ الخليفةِ في بَغداد، حتى في أَيامِ خلافةِ المأمونِ والمعتصمِ من بَعدِ الرّشيد.

إلاّ أنَّ المعتصم، بدأَ يستعين بجنودٍ من الأتراك، تمرّدوا عليه في حياتِه، وكانوا سبباً في تفكّكِ تلك الأمبراطوريةِ العظيمة، فظهرت الإماراتُ المستقلةُ في فارسَ ومصر.

فبينما ظهرت في مصرَ الدَّولةُ الطُّولُونية، ثم الإِخْشِيديّة، ثم الفاطمية، ظَهرت في الناحيةِ الأخرى من بغدادَ عاصمةِ الخلافة، عِدةُ اماراتٍ مستقلةٍ مثلِ إمارةِ الخُوارِزْمِيّين وعاصمتُها (كركانج) في أقصى شمالِ فارس. وامارةِ طبرستان جنوبيَّ بحرِ قَزوين وعاصمتُها (جرجان). وفي غربيِّ بلادِ فارس حَكمت الأُسرة البُوَيْهِيّة. فرعٌ منها يُحكمُ (الري)، والآخرُ يَحكمُ (هَمَذَان). كما قامت دولةٌ قويةٌ

في (أصفهان). وفي أقصى الشرقِ بأفغانستان، قامت الدولةُ الغَزْنَويّة، نسبةً إلى (غَزْنَةَ) عاصمتِها. وفي شَماليِّها كانت إمارة خُراسان وعاصمتُها (بُخارَى).



في عهدِ السلطان نُوحِ بْنِ منصورِ السَّاماني، وَفَدَ إلى عاصمةِ مُلكِه (بخارى)، رجلٌ يقالُ له عبدُ الله بنُ سِينا، استطاعَ أن يَكسِبَ ثقةَ السّلطانِ، بثقافتِه وحبِّهِ للفلسفةِ والفلاسفة، فولاّه ادارةَ قريةٍ في ضَواحِي (بخارى). وذلك عام ٩٨٠ ميلاديّة (٣٧١ هجرية)، ورُزِق ذلك الرجلُ بغلامٍ أسماه، أبا عليٍّ الحُسين.

قُدِّرَ لهذا الغلام، أن يَذيعَ صيتُه في أنحاء العالَم، وأن تتناقلَ ثمارَ عِلمه، أجيالٌ من الطلابِ والأساتذة، في مدارسِ الشرق، وجامعاتِ الغرب.

ذلك هو «الشيخُ الرئيسُ الحسينُ بنُ عبدِ الله بنِ سينا»، أو باختصارٍ شديد «ابنُ سينا»، أشهرُ مشاهيرِ العلماءِ العالميّين، كما شهدَ بذلك علماءُ الغرب.

بدايةُ عَبقرية

تنتقلُ الأسرةُ إلى بُخارى عاصمةِ السلطنةِ في أعقابِ مولِدِه، ويبدأُ أبو عليٍّ ثقافَته بحفظِ القرآنِ الكريم، ودراسةِ ما يلزمُ لفهمِهِ من اللغةِ العربيةِ والأدب، فَاستطاعَ أن يُجيدَ ذلك كلَّه اجادةً تامة، وهو بعدُ في العاشرةِ مِن عمرِه. مما جعلَه حديثَ الناسِ وموضعَ إعجابِهم. وقد كَشَفَ هذا عن ذاكرةٍ قوية، عُرِفَ بها بعد ذلك.

يتفرغُ الصبيُّ بعدَ ذلك لدراسةِ الفقه، فيختارُ له أبوه أستاذاً مشهوداً له بالمعرفةِ في هذا العِلم، هو «اسماعيلُ الزاهد». استطاعَ ابنُ سينا في وقتٍ قصيرٍ أن يستوعبَ علمَ الفِقه، فَعَرَفَ اصولَ الدين وقضاياه منذ الصِغر.

أما صلةُ ابن سينا بالفلسفة، فترجعُ إلى ما قبلَ هذا. لقد تَفتّحت أُذنُهُ منذ أن بدأَ يَعي معنَى الكلمات، على أحاديثِ والدِه ومناقشاتِهِ مع صحبهِ، حولَ النفسِ والعقلِ وغيرها من القضايا الفلسفيةِ التي كانت محببةً إلى نفوسِ أهلِ الشِّيعة، الذين كان والدُه من بينهم.

وبين أجولةِ العِطارةِ والبُقُول، استقَى ابنُ سينا معارفَه في الحسابِ ومبادىءِ الهندسة، على يدِ رجلٍ يُدعى «محمودَ المسَّاح»، يبيعُ البَقُولَ ويشتهرُ إلى جانبِ ذلك، بتفوقِه في علومِ الحسابِ والهندسة.

ينزلُ بمدينة (بخارى) في ذلك الوقت، رجلٌ يُدعى «أبا عبدِالله النّاتلي»، وكان يلقَّبُ بالمتفلسف، لتخصصهِ في علومِ الحكمةِ والمنطق، فيستضيفُه والدُ ابنِ سينا في بيتِه، راغباً في أنْ يقومَ بتعليمِ ولدِه. ويُقْبلُ ابنُ سينا على دروسِ استاذِه الجَديد، فيدرسُ على يديه ترجمةً لكتابِ المَدْخَل إلى علمِ المنطقِ، المعروفِ باسمِ «ايساغوجي».

بدأَ الناتلي، يطرحُ القضايا العلميةَ على ابنِ سينا، ويمتحنُه فيها، فَيذكُر ابنُ سينا الإجاباتِ المستفيضةَ الدّقيقة، ويكشفُ عن إحاطةٍ كاملةٍ بالموضوعِ الذي درسَه، مما كان يبعثُ العَجَبَ في

نفسِ الأستاذ، فيمضي إلى والدِ ابنِ سينا، ويحذّرُه من التفكيرِ في توجيهِ الابنِ المتفوقِ إلى غيرِ وجهةِ العِلم.

يوماً بعدَ يوم، بدأَ التلميذُ يتفوقُ على أستاذِه، فيغوصُ في الموضوعات المطروحة، ويَخرجُ منها بأفكارٍ، لم يسمعْ بها الأستاذُ ولا خَطَرت له من قَبل. وبعدَ أن رأى منه الناتليُّ ذلك، واكتشفَ انَّه يَحُلُّ مسائلَ كتابِ إقليدسِ في الهندسةِ ويتفهمُها دونَ مساعدةٍ منه، قال له «تولَّ القراءةَ والحلَّ بنفسِك، ثم اعْرِضْ عليَّ النتائج، لأبيّنَ لك الصوابَ من الخطأ». لكن الناتلي، لم يلبث حتى أحسَّ أنه عاجزٌ عن تقديمِ جديد إلى ذلك العقلِ المتفتحِ الذي لا يقفُ عندَ حدّ، فودَّعَ تلميذَه النجيب، وارتحلَ إلى مدينةِ (كركانج).

ويُروى أنه قرأَ كتابَ ما بعدَ الطبيعةِ لأرسطو، وحَفِظَه عن ظهرِ قلب، دون أن يفهمَه، وسار يوماً في السّوق، فَعَرَضَ عليه أحدُ الباعةِ شراءَ مجلدٍ بثلاثةِ دراهم، فرفَض ابنُ سينا ومضَى في طريقِه. إلاَّ أن البائعَ لحقَه وألحَّ عليه فقبلَ أخيراً تحتَ إلحاحِ البائع. وعندما ذهبَ إلى دارِه، وجدَ أن الكتابَ لأبي نصرِ الفارابيِّ العالمِ العربيِّ الكبير، عن موضوعِ ما بعدَ الطبيعةِ لأرسطو. راحَ ابنُ سينا يقرأُ الكتاب، وما زال النصُّ الأصليُّ حاضراً في ذاكراتِه، فأَخذت المسائلُ المغلقةُ تتفتحُ لذهنِه. ويقول ابنُ سينا في هذه الواقعةِ، «فَرحتُ بذلك، وتصدَّقت في ثانِي يومِ بشيءٍ كثيرٍ على الفقراء، شكراً للهِ تعالى».

من فَرطِ ذكاءِ ابنِ سينا نراه وقد أَنهَى دراسةَ الطب وهو لم يبلغْ بعدُ السادسةَ عشرةَ من عمرِه، دونَ معلمٍ يساعدُه. ثم أخذَ

يعالجُ المرضى بنجاح، فذاعَ صيتُه، وأَقبلوا عليه من كلِّ ناحية، فضاعفَ ذلك من خِبرتِه، مستفيداً من التجاربِ التي تمرُّ به، حتى أصبحَ موضعَ ثقةٍ في هذا العلم. فكان الأطباءُ يَقْصِدونه ليُفِيدوا منه، وهو بعدُ في السادسةَ عشرةَ من عمرِه.

مع إتقانِه الطبّ، لم ينسَ ابنُ سينا حنينَه إلى العلوم العقليةِ التي أحسَّ حلاوةَ دراستِها عندَ تعلمِه المنطقَ والهندسة. بدأَ بقراءةِ المنطقِ من جديد، ثم فلسفةِ أرسطو، ورسائلِ اخوانِ الصفا، وكُتبِ الفارابي. أمضى ابنُ سينا في دراستِهِ هذه سنةً ونصفَ السنة، يستغرقُه الاطلاعُ ليلاً ونهاراً. ويقولُ إنه كلما كان يستعصِي عليه أمرٌ من دراستِه، لجأَ إلى الصلاةِ والابتهالِ إلى الله، حتى يتضحَ لعقلِه ما غَمُضَ عليه. كما يقولُ إنه كثيراً ما نامَ وعقلُه مشغولٌ أشدَّ الانشغال بقضيةٍ أو مسألةٍ لا يجدُ لها حلاً، فكان يصلُ إلى الحلِّ اثنَاءَ نومِهِ!

وعندما بلغَ ابنُ سينا الثامنةَ عَشرة، كان قد حفظَ القرآنَ الكريم، ودرس تفسيرَه، والأدبَ واللغةَ والفِقه، والحسابَ والهندسةَ والمنطق، بالاضافةِ إلى الطّب، وعلمِ الكلامِ والفلسفة.

ابنُ سينا الطّبيب

بدأت بعد ذلك حياةُ ابنِ سينا العمليةُ الحَافلة، فاستطاعَ في زمنٍ قصيرٍ أن يَحظى بشهرةٍ واسعةٍ في الطب، مما دَعَا «نُوحَ بنَ منصور» سلطان (بخارَى) أن يطلبَ منه العِلاج، على أثرِ مرضٍ شديدٍ ألَمَّ به، وَفَشِلَ كبارُ الأطباءِ في علاجِه. فينجحُ ابنُ سينا فيما فَشِلَ فيه الآخرون. ويضمُّه السلطانُ إلى حاشيتِه، مما أتاحَ له

الاطلاعَ على مكتبةِ السلطانِ الزّاخرة، وفي هذا يقولُ ابنُ سينا «رأيت فيها من الكتب ما لمْ يقعْ اسْمه إلى الكثيرِ من الناسِ قطّ، ولا رأيته قبل، ولا رأيتُه أيضاً من بعد، فقرأت تلك الكتب، وظَفِرت بفوائدِها، وعَرَفت مرتبةَ كلِّ رجلٍ في علمِه».

يَذِيعُ صيتُ ابنِ سينا في (بخارى)، ليس كطبيبٍ فَحسب، بل كمؤلّفٍ في الأدب والفلسفة، ظَهرت له الكتبُ العديدة، وهو لم يبلُغْ بعدُ إحدى وعشرين سنَةً من عمرِه، وبعدَ وفاةِ والدِه يَسْنِدُ إليه السلطانُ عملاً من أعمالِ الدولة.

وفي عام ١٠٠١ م (٣٩٢ هـ)، يُحِسُّ ابنُ سينا باضطرابِ أحوالِ الدولةِ السامانية، وتعرُّضِها للسقوطِ في يدِ سلطانٍ آخر، هو محمودُ بن سُبُكْتَكِين، سُلْطَانُ (غَزْنَة)، والذي اشتهرَ بتعصبِه ضدَّ الفلاسفة، وكراهيتهِ للمذهبِ الشيعيّ. فيرحلُ ابنُ سينا عن (بخارى)، مودّعاً حياةَ الهدوءِ والاستقرارِ والتحصيلِ التي عَرَفَها فيها، مستقبلاً حياةً صاخبة، زاخرةً بالأحداث.

فِرارٌ من الطاغية

وصلَ ابنُ سينا في رحلتِه إلى (كركانج) عاصمةِ خُوارِزْمَ في عهدِ أميرها عليّ بنِ مأمون. ومن حُسنِ طالع ابن سينا، أن وزيرَ الإمارةِ أبا الحسين السُّهْلي، كان محباً للفلسفة، يَعطِفُ على المشتغلين بها، فطابت له الحياةُ في بلاطِ الأمير، الذي كان يَضُمُّ نُخبةً من كبارِ العلماء، قلّما يجتمعُ مثلُهم في مكانٍ واحد. مثلَ البَيْرونيّ صاحبِ البُحوثِ القيّمة والنادرةِ في الرياضيات والتاريخ، وأبي النصرِ العِراق، المشهورِ بدراساتِه في علمِ الرياضة، وأبي

سَهلِ المَسيحيّ، وأبي الخَيرِ الخَمَّار.

وما يكادُ ابنُ سينا يشعُرُ بالاطمئنان، وتطيبُ له الحياة، حتى يُطلَّ شبحُ سُلطانِ (غَزْنة) من جديد، ذلك الشبحُ الذي دَفَعَه من قبلُ إلى الهِجرةِ من (بخارى) إلى (كركانج). يرسلُ السلطانُ محمودُ بنْ سُبُكْتَكين إلى الأميرِ الخوارزميّ عليٍّ بنِ مأمونٍ طالباً إرسالَ كافةِ العلماء الذين في بَلاطِه إلى (غَزْنة). ويشعرُ الأميرُ عليٌّ أنه مُضطرٌّ إلى تنفيذِ طلبِ السلطانِ محمود، فهو لا يستطيعُ أن يُقاومَ رغبةَ السلطانِ الغَزْنَويّ الذي بلغَ حدّاً كبيراً من القوةِ والمقدرةِ العسكرية. جمعَ الأميرُ عليٌّ علماءَه وأبلغَهم رغبةَ سلطانِ (غزنة)، فقبلَ البعضُ ورفضَ البعضُ الآخر، ومن بين الذين رَفضوا كان ابنُ سينا وزميلُه أبو سهل المسيحيّ. فهيّأ لهما الأميرُ سبيلَ الفِرار، وأمدَّهما بدليلٍ حاذقٍ يقودُهما في شِعابِ الصّحراءِ الموصلةِ إلى مدينةِ (جَرْجان).

استشاطَ السلطانُ الغَزْنويُّ غَضباً لفرار ابنِ سينا، ذلك أنه عندما طلبَ علماءَ الأميرِ عليّ، كان يطلبُ على الأخصِّ ابنَ سينا، طامِعاً في استغلالِ معرفتِه الطّبية. لذا لجأَ السلطانُ إلى زميلٍ لابنِ سينا، هو أبُو الخَير الخَمَّارُ الذي كان بارعاً في الرسم، وطلبَ إليه صورةً دقيقةً لابنِ سِينا من الذاكرة. بعد أنْ انتهَى الخَمارُ من مهمتِه، أمرَ السلطانُ برسمِ أربعين نسخةً منها، ووزَّعها في جَميع أنحاءِ فارس، طالباً القبضَ على الفيلسوفِ الهاربِ في أيِّ مكانٍ يوجدُ فيه. لكنَّ ابنَ سينا بالرغمِ من هذا نجحَ في الاختفاءِ عن عيونِ السلطانِ الغَزْنويِّ وعملائِه.

الرِحلةُ الشَّاقة

ويتحدثُ المؤرخون عن المُغامراتِ العديدةِ التي خاضَها ابنُ سينا وصحبُه في رحلتِهم، وكيف ضلُّوا الطريق، وتحمّلوا الأهوالَ من عَنَتِ الطبيعة، ومشقةِ السّفر، مما أدّى إلى موتِ أبي سَهلٍ المسيحي، العالمِ الذي فرّ معه. وفي مدينة تسمى (باورد)، يرفضُ الدليلُ أن يواصلَ معه الرِحلة، وينسحبُ عائداً إلى بلادِه. فيمضِي ابنُ سينا بلا دليلٍ من بلدٍ إلى بَلد، قاصداً الاحتماءَ بالأمير «قابوس الزياري». وتشاءُ الأقدارُ أن يقعَ قابوسُ أسيراً، وأن يُحبَسَ في بعضِ القِلاعِ حتى يَموت، فيواصلُ ابنُ سينا ارتحالَه وهو يقول:

لـمـا عَـظُـمـتُ فـلـيـسَ مـصـرٌ واسـعِـي

لـمّـا غَـلاَ ثـمـنِـي عَـدِمـتُ الـمُـشـتـري

وفي (جرجان) يلتقي ابنُ سينا برجلٍ يسمّى «أبا محمدٍ الشيرازي»، كان محبّاً للعلمِ والعلماء، فيشتري لابنِ سينا داراً ويُسكنُه فِيها. وفي (جرجان) قابلَ اخلصَ تلاميذِه، «أبا عبيدِ الله الجُوزْجَانيّ»، الذي ظلَّ في صحبةِ استاذِهِ حتى شَيَّعَه إلى قبرِهِ، فاستمرّت هذه الصداقةُ ما يقربُ من رُبع قرن. يكتبُ ما يُمليه ابنُ سينا، ويقرأُ له، وفي نفسِ الوقتِ يؤرخُ لحياتِه.

شَرَعَ ابنُ سينا يتكسبُ من علاجِ المرضى في (جَرْجان)، حتى ذاعَ أمرُه، ومرضَ أحدُ أقرباءِ الأميرِ مرضاً استعصَى على الأطباءِ علاجُه، فلمّا استدعَى ابنَ سينا، رأى أنَّ مرضَه ليس جسمانياً، بل هو مرضٌ نفسيّ يرجعُ إلى كِتمانِ غرامِه بفتاةٍ يحبّها، وقد كَشَفَ أمْرَه بأنْ أمسكَ بمعصمِه يَجُسُّ نبضَه، ثم طلبَ من أحدِ

الحاضرين أن يذكرُ أسماءَ شوارعِ (جرجان) وازقّتِها وبيوتِها وعائلاتِها، وكلّما اضطربَ نبضُ المريض، عَرَفَ ابنُ سينا الشارعَ المقصود، والبيتَ، والسّاكن. واستمرَّ في محاولتِهِ هذه، حتى عَرَفَ اسمَ الفتاةِ التي يحبُّها المريض، ونصحَه بزواجِهِ منها، فشُفي.

أمضى ابنُ سينا في (جرجان) أكثرَ من سنتين، انشغلَ فيهما بالقراءةِ والكتابة، وبدأ في تدوينِ كتابِه الطبيّ العظيم «القانون في الطب»، كما انتهَى من كتابِهِ «المبدأ والمَعاد».

ورغمَ الحياةِ الطبيةِ التي عَرَفَها ابنُ سينا في (جرجان)، إلا أنَّ نفسَه الفوَّارةَ بالأحلامِ والآمالِ، دفعته إلى مغادرتِها، حيث أدركَ أنه لن يبلغَ فيها مركزاً مَرموقاً من السلطة، نتيجةً لاضطرابِ أحوالِها. فسافرَ إلى مدينةِ (الرَّيّ) عاصمةِ مجدِ الدولةِ ابنِ بُوَيْه. وتوثَّقت صلتُه بالأميرِ الذي كان شَغوفاً بالفلسفة، كما كان يحتاجُ خِبرةَ ابنِ سينا الطبية، لمعالجتِه من مرضٍ يشكُو منه. في (الريّ) لم يُنجز ابنُ سينا سوى كتابٍ واحد، هو كتاب «المَعاد». ولعلَّ مرجعَ هذا إلى أنَّ اقامتَه لم تَطُلْ فيها، وسافَرَ منها عام ١٠١٣ م (٤٠٥ هـ)، إلى مدينةِ (قَزْوين) ثم استقرَّ به المُقامُ أخيراً في مدينةِ (هَمَذَان).

ابنُ سينا وَزيراً

في (هَمَذانِ)، مَرِضَ اميرُها شمسُ الدولةِ بالأمعاءِ الغليظة، فاستدعيَ ابنُ سينا لعلاجِه، وبقيَ بقصرِ الأميرِ أَربعين يوماً يداويه حتى شُفي. كان ذلك سبباً في تقديرِ الأميرِ له، فتوطَّدت الصلةُ

بينهما، حتى إنَّ الأميرُ كان يَصْحَبُهُ في الحروبِ التي كانت دائمةَ النشوبِ بين الإمارةِ والاماراتِ الأخرى المجاورة.

وأخيراً، تحققَ لابن سينا حُلمُه الكبير، ذلك الحلمُ الذي دَفعَه إلى التنقلِ بين البلدان والامارات، متحمّلاً مشاقَّ هذا التنقلِ وعواقبَه، وذلك عندما اختارَه الأميرُ شمسُ الدين وزيراً للإمارة.

أرادَ ابنُ سينا أن يُحْسنَ استغلالَ هذه الفرصةِ التي أُتيحت له، فتشددَ في إدارتِه للأمور، وكان من نتيجةِ هذا أن ثارَ الجنود، وهاجَموا دارَه، واغتصبوا جميعَ ما يَملك، كما طالبوا الأميرَ بقتلهِ. أرادَ الأميرُ أن يُوفقَ بين مطلبِ الجندِ ومحبتِه لابنِ سينا، فاكتفى بنفيهِ. إلاَّ أن ابنَ سينا يحس بالخطر الذي يتهدده، فلا ينتظرُ قرارَ الأمير، ويهربُ مُتخفّياً في بيتٍ كبيرٍ من أعيانِ هَمَذان يُدعى الشيخَ أبا سَعدِ بن دَخْدوك، ويبقى هناك أربعين يوماً.

لكنَّ الأميرَ شمسَ الدولَة تعاودُه أوجاعُ الأمعاء الغليظة، فيأخذُ في البحثِ عن ابنِ سينا حتى يجدَه، فيعتذرَ له، ويبذلَ جُهداً بين الجندِ لقبولِه وزيراً مرةً أخرى.

ولأكثرَ من ستّ سنواتٍ متصلة، تستقرُّ حياةُ ابنِ سينا، فيختارُ لنفسِه منهاجاً يومياً حافلاً بأنواعِ العَملِ والنّشاط، لا يجودُ نشاطٌ على آخر.

فهو يستيقظُ قبلَ الفجرِ ليكتبُ عدةَ صفحاتٍ من «كتاب الشّفاء» الذي يضمُّ حصيلةَ افكارِه في الفلسفةِ والمنطقِ والعلوم. وعندَ الفجر، يستقبلُ تلاميذَه ليُلْقيَ عليهم دروسَه، وما أنْ تنتشرَ

تباشيرُ الصّباح، حتى يُصلِّي بهم إماماً. ثم يخرجُ من بيتِه إلى ديوانِ الوزارة، فيلقاه بالبابِ ألفٌ من الفرسان، ومن بينِهم وجوهُ الدولةِ وأصحابُ الحاجات، يركبُ الوزيرُ ابنُ سينا فرسَه، ويَمْضي وحاشيتُه من حولهِ حتى يصلَ إلى مقرِّ عملِه، فيمكثُ حتى الظّهر. ثم يعودُ لتناولِ الغَداءِ الذي يشاركُه فيه دائماً عددٌ من الناس، ويستأذنُ منهم بعد ذلك لينامَ طلبًا لبعضِ الراحة. ثم يستيقظُ من نومِه هذا ليؤديَ صلاةَ العصر، قبلَ أنْ يذهبَ إلى الأمير، فيُمضي معه فترةَ ما بعدَ العَصرِ إلى المغرب، في المنادمةِ واجتذابِ اطرافِ الحديث. وبعدَ أن يُصلّيا معاً صلاةَ المغرب، ينصرفُ ابنُ سينا إلى داره.

في دارِه يجتمعُ به تلاميذُه، ليُمليَ عليهم من الذّاكرةِ بعضاً من كتبهِ ورسائلِه حتى يَحِلَّ الليل، فَيَفرغوا مما هم فيه، ويحَضُرُ المغنون على اختلافِ طبقاتِهم، ويهيّأُ مجلسُ الشراب وموائدُ الطّعام، فينصرفُ ابنُ سينا إلى الاستمتاعِ بهذا كلِّه، بنفسِ النشاطِ الذي مارسَ به عملَه في يومِه الحافل.

في السِّجن

وكان ذلك عام ١٠٢٠ م (٤١٢ هـ)، عندما كان في طريقِه لمحاربةِ أميرِ جهةٍ تعرفُ باسم (طارم)، فاشتدَّ به المَرَض، نتيجةَ إهمالِهِ وصايَا ابنِ سينا في العِلاج، ويخافُ الجنودُ أن يَموتَ، فيعودوا به إلى (همذان)، وفي طريقِ العودة، يُسلمُ الأميرُ شمسُ الدّولة الروح.

بعد وفاةِ الأميرِ شمسِ الدولة، بويع ابنُه الأميرُ سَماءُ الدولة،

وطالب الجندُ الأميرَ الجديدَ بتعيينِ ابنِ سينا في منصبِ الوزارة، نفسُ الجندِ الذين ثَاروا عليه أولَ الأمر، وفي هذا دليلٌ على مقدرةِ ابنِ سينا السياسيةِ التي أتاحت له استمالةَ أعداءِ الأمس. إلاَّ أنَّ الأميرَ يرفضُ طلبَهم، ويختارُ لنفسِه وزيراً جديداً هو «تاجُ المُلك».

يغضبُ ابن سينا، ويفكرُ جديّاً في تَركِ (همذان)، والسفرِ إلى (أصفهان)، لائذاً بأميرِها «علاءِ الدولةِ جَعفر ابنِ كَاكَوَيْه». واستعداداً للهرب، يختفِي مدة طويلةً في بيتِ صديقٍ من أعيانِ (همذان) يدعى أبا غالبِ العَطارِ. وكانت ايامُ اختفائِه هذه، أيامَ عملٍ جادّ، أتمَّ فيها أكبرَ موسوعةٍ فلسفيةٍ إسلامية، هي كتابُ «الشِفاء»، ويقالُ إنه اعتمدَ في هذا على ذاكرتِهِ فقط، لم يستندْ إلى مَرجِعٍ، ولم يعتمدْ على أصلٍ أو مُذكِّرات. وكان يكتبُ في كلِّ يومٍ خَمسين وَرقة.

وفي نفسِ الوقت، أخذ ابنُ سينا في مكاتبةِ علاءِ الدولةِ سرّاً، لكنَّ الوزيرَ الجديدَ تاجَ الملك يكتشفُ أمرَ المكاتبة، ويعرفُ مَخبأَ ابنِ سينا، فيقبضُ عليه، ويسجنُه في قَلعةٍ تسمَّى (فردجان)، ومعه تلميذُه الوفيُّ أبو عُبيدِ الله الجُوْزْجَانيّ، وعند دخولِ ابنِ سينا إلى السّجن، يُنشدُ قائلاً:

دخـــولٌ بـــالـــيــــقــــيـــنِ كـــمـــا تَـــراهُ
وكـــلُّ الـــشـــكُّ فـــي أمـــرِ الـــخُـــروج

في السجن، يلجأُ ابنُ سينا إلى تسليتِه المفضَّلة، التأليف. فيكتبُ أُولى رسائِله الرَّمزية، قصةَ «حيّ بن يَقْظان»، ثم كتابَ «الهِداية»، ويكتبُ كذلك في الطبِّ كتابَه «الأدويةُ القلبيّة».

بعد أربعةِ أشهر، تقعُ الحربُ بين الأميرِ سماءِ الدولةِ والأميرِ علاءِ الدولة، الذي كان ابنُ سينا يكاتبُه سراً. وتنتهي المعركةُ بهزيمةِ سماءِ الدولة، الذي يرجعُ بعد ذلك إلى عاصمتِه، فيمرُّ بقلعة (فردجان)، ويتذكرُ ابنَ سينا، فيُفرجُ عنه، ويأخذُه إلى العاصمةِ حيث يُطلِقُ سَراحَه.

بعدَ عودتِه إلى (همذان)، يقيم ابنُ سينا في دارِ رجل يقالُ له العَلَويّ، وتَمضِي فترةٌ من الزمن، يتظاهرُ فيها بالاعتكاف، حتى تحينَ الفرصةُ في عام ١٠٢٢ م (٤١٤ هـ)، فيهرُبَ إلى (أصفهان) ومعه صديقُه وتلميذُه الوفيُّ الجوزجاني وقد تنكَّرَ الجميعُ في زِي المتصوِّفين.

مَعَارك. . . ومُنافسات

في (أصفهان)، قضَى ابنُ سينا أربعَ عَشْرةَ سَنة، في كَنَفِ علاءِ الدولةِ الذي أحبَّه.

ولعلَّ السرَّ في اختيارِ ابنِ سينا لعلاءِ الدولة، هو رغبتُه في حمايةِ نفسِه من الشبحِ القديم، السلطانِ محمودِ الغَزْنويّ. فلم يكن هناك من يستطيع أن يحميه من ذلك الشبح، سوى علاءِ الدولة، الأميرِ القوي، الذي كانت بينَه وبين سلطانِ غَزْنةَ عداوةٌ مُسْتَحْكِمة.

عاشَ ابن سينا في بَلاطِ علاءِ الدولة، كأقربِ الندماءِ إلى قلبِه، لا يتركُ صُحبتَه في السِلم أو في الحرب. ولعلَّ هذا القربَ من عَلاءِ الدولة قد أثارَ أحقادَ الكثيرين، مما ادخلَه في الكثيرِ من المعاركِ والمنافسات، خاصةً وأنَّ ابنَ سينا لم يكن متسامِحاً في

عداوتِه، كما كان لا يُعنَى بعواطفِ الآخرين.

ومن ذلك ما حدَثَ له مع عالمٍ من علماءِ اللغةِ اسمُه أبو منصور، حين كانا في حضرةِ الأميرِ علاءِ الدولة، وجرى ذكرُ موضوعٍ من موضوعاتِ اللغة، فتكلمَ فيه ابنُ سينا عارضاً وِجهةَ نظرِه، مما دفع أبا منصورٍ إلى أن يتهكَّمَ قائلاً «أنت فيلسوفٌ وحكيم، ولم تقرأ اللغة». نالَ ذلك من نفسِ ابنِ سينا، فعكَفَ على دراسةِ اللغةِ ثَلاثَ سنواتٍ كاملة، حتى بلغَ فيها مكانةً عظيمة. وعندما أحسَّ بمقدرتِه، وضَعَ ثلاثَ قصائد، استخدمَ فيها ألفاظاً غريبة، وثلاثَ رسائل في النثرِ ذات أساليبَ مختلفة، على نَمَطِ كتاباتِ اشهرِ الكتّابِ في عصرِه، ثم كلَّفَ من كتَبها جميعاً على شرائحَ من الجلد، وعالجَ الجلدَ بطريقةٍ جَعلته يبدو قديماً.

حمَلَ ابنُ سينا هذا كلَّه إلى الأمير، وأوعزَ إليه أن يستدعي غَريمَهُ اللغويَّ الذي تَهَكَّمَ عليه منذُ ثلاثِ سنوات، وطَلَبَ من الأميرِ أن يعرضَ على عالمِ اللغةِ هذه القِطعَ من الجِلْدِ. زاعماً أنه عَثَرَ عليها بالصحراءِ في رِحلةِ صيد.

أخذ أبو منصور ينظرُ في هذه المخطوطات، فَعجِزَ عن فهم أغلبِ ما فيها، وهنا تقدمَ ابن سينا، وأخذَ يَشرحُ كُلَّ ما عَجِزَ عنه أبو منصور، وكان يقول له إن ذلك اللفظَ تراه في كتابِ كذا، وفي الموضعِ كذا. هنا أدركَ أبو منصور أنّ القصائدَ والرسائلَ من تأليفِ ابنِ سينا، فاعتذر، وانسحبَ من المجلس، ساخطاً ناقماً.

وكان اعتدادُ ابنِ سينا بنفسِهِ، يدفعهُ في كثيرٍ من الأحيانِ إلى الاستهتارِ بالناس. مثالُ ذلك ما حدثَ له مع الأميرِ نفسِه. فقد

أهداه الأمير حِزاماً من الفضة. ومرَّ بعضُ الزّمن... وفي ذاتِ يوم رأى الأميرُ ذلك الحزامَ مع صبيٍّ من صِبيانِ ابنِ سينا، فغضبَ واعتبرَ ذلك اهانةً له، وعندما قابلَ ابنَ سينا صَفَعَه على وجهِهِ، ثم تصاعدَ غَضبُ الأمير، حتى أمَرَ بقتلِه. أسرعَ ابن سينا إلى تنكرِه القديم في زيّ المتصوّفين، وفرَّ من (أصفهان) إلى مدينة (الريّ)، تاركاً كلَّ أموالِهِ وممتلكاتِه. إلا أنَّ الأميرَ علاءَ الدولة، أحسَّ بعدَ أيام أنه تجاوزَ الحدَّ في خصامِه مع ابنِ سينا، فعفَا عنه، وأرسلَ إليه من يدعوه إلى العودة. وتحت ضغطِ الحياة، والرغبةِ القديمةِ في الحمايةِ التي يُوفّرُها له علاءُ الدولةِ في مواجهةِ أميرِ غَزْنة، يعودُ إلى البَلاط، رغمَ ما لحقَ به من إهانة.

وفي بَلاطِ علاءِ الدولة، اشتغلَ ابنُ سينا بشكلٍ عمليّ في علم الفلك، فقامَ بمختلفِ الأرصادِ والأبحاثِ الفلكية، وأصلحَ بأرصادِه بعضَ الخَلَلِ في التقويمِ السائدِ في وقتِه، واخترعَ آلةً جديدةً للرصد. مَدعوماً في كلِّ ذلك، بالتشجيعِ الماديِّ والأدبيّ من جانبِ علاءِ الدولة.

ويقول أبو عبيدِ الله الجُوزْجاني، إن ابنَ سينا أكملَ أثناءَ اقامتِه في (أصفهان) العديدَ من الدراساتِ والبحوث. فَأَنْهَى كتاب «الشفاء» في صيغتِه الأخيرة، ثم ناقشَ نظرياتِ اقليدس الهندسيَّة، وانجزَ عدةَ أعمالٍ في العلوم الرياضيةِ والموسيقية، كما ألّف كتاباً في اللغةِ أسماه «لسانَ العرب»، إلاّ أنّ أصولَ ذلك الكتابِ ضَاعت، ولم يُعْثرْ عليها حتى يومِنا هذا.

عندَما لا تنفعُ المعالجة

بعدَ هذه الحياةِ الحافلةِ بالمغامرات والمعارك، بدأَ ابنُ سينا يشعرُ بالأمراضِ تتكاثرُ عليه. وكان أشدَّ هذه الأمراض، مرضُ الأمعاءِ الغليظة، الذي طالما عالجَ غيرَه منه.

ورغمَ هذا، لم يتوقفْ عن نشاطِه، فكان يلازمُ عَلاءَ الدولةِ في غزواتِه الحربية. وفي إحدى هذه الغزوات، أحسَّ ابنُ سينا بنوبةِ المرضِ تعاودُه، وخشيَ أن تؤثرَ حالتُه على سيرِ المعركة، فحقنَ نفسَه بالدواءِ ثمانيَ مراتٍ في يومٍ واحد، حتى تَقرّحت بعضُ أمعائِه، وأصيبَ بنوبةِ صَرَع.

وعندما اشتدَّ عليه المَرض. لجأَ إلى طبيبٍ آخرَ يساعدُه، فيما لا يستطيعُ هو أن يقومَ به. وتشاءُ الظروفُ أن يخطىءَ الطبيبُ في تنفيذِ أوامره، فيركّبُ له الدواءَ تركيباً خاطئاً، فيتضاعفُ مرضُه وتسوءُ حالتُه. ويقال إن السببَ في تدهورِ حالتِه أن بعضَ خَدَمِهِ، رغبةً في سَترِ جريمةِ سطوٍ قاموا بها على أموالِه، دَسُّوا له في دوائِه بعضَ الموادِّ الغريبة بهدفِ إهلاكه، قبل أن يكتشفَ جريمتَهم.

أياً كان السبب، فقد زادتْ صحتُه سُوءاً، وضَعُفَ جسمُه، وخارت قِواه. فأَهملَ العِلاج، وأخذ يقول «المدبّرُ الذي في بدنِي عَجِزَ عن تدبيرِه، فما بيَ حاجةٌ إلى المعالجة». اغتسلَ ابن سينا وتاب، وتصدَّقَ بما معه على الفُقراء، وأَعتقَ مماليكَه، وأقبلَ على قراءةِ القرآنِ الكريم، فكان يُتمُّه مرةً كلَّ ثلاثةِ أيام.

وما أن حلّت الجمعةُ الأولى من رَمضانَ عام ١٠٣٧ م (٤٢٨ هـ)، حتى انتهت تلك الحياةُ الحافلةُ بالنشاطِ والابتكارِ والمجدِ والمغامرة، وهدأت تلك النفسُ التي ما عَرَفَت السّكون.

من أعمال ابن سينا

في الطب:

من أهمِّ مؤلفاتِ ابنِ سينا الطبيةِ وأكثرِها قيمة، كتاب «القانون». وترجعُ شُهرةُ «القانون» إلى ما يمتازُ به من التنظيم، وحسنِ الصياغةِ، مع اشتمالِهِ على كل ما يحتاجُه الطبيب. وقد تمت ترجمتُه إلى اللغةِ اللاتينية في القرنِ الثاني عشرَ الميلادي، وبقيَ حتى نهايةِ القرنِ السابعَ عشر، المرجعَ الأولَ لعلومِ الطبّ في الجامعاتِ الأوروبية.

وقد قسَّمَ ابنُ سينا ابوابَ ذلك المرجع الطبيّ، على طرازِ أدقّ المراجعِ العلمية، وقسَّمَ فيه الأمراضَ لأولِ مرةٍ في تاريخِ الطب، إلى رأسيةٍ وصدْريةٍ وباطنيةٍ وعصبيةٍ ونسائيةٍ وتناسلية، وهو يشرحُ كلَّ قسم شرحاً دقيقاً، ويتحدثُ عن كلِّ مرض، مفصِّلاً نشأتَه وأسبابَه وأعراضَه وطُرقَ علاجِه.

وابنُ سينا، هو أولُ من كَشَفَ مرضَ «الانكلوستوما» وهو داء يصيب الأمعاء وسببُهُ دودةٌ خيطيةٌ توجد في القسمِ الأعلى من الأمعاء أو المصارين في الإنسان. وسَبقَ بذلك المكتشفَ والعالمَ الايطاليَّ «دوبيني» بما يزيدُ على مئةِ سنة. كما أشارَ إلى عدوى

السُلِّ وإلى انتقالِ الأمراضِ بالماءِ والتراب. وابتكرَ ما يُشبهُ (كيسَ الثلج) واستخدمَه في الحُمَّيات. وأدخلَ إلى علم الأدويةِ الطبية، عدداً كبيراً من الأدويةِ النافعةِ التي لم تكن مستعملةً مِن قبل.

وكان ابن سينا هو أولُ من قال بوجودِ أورامِ المُخ، وكان من أعمقِ الباحثين في أمراضِ (قَرْحةِ المَعِدة)، وأولُ من قال بالأسبابِ النفسيةِ للاضطراباتِ المِعَويّة. كما كانت له تشخيصاتُه السليمةُ المحكمةُ في أعراضِ وسَيْرِ الأورامِ السَّرَطانيةِ. وكان تشريحُه للعين، القُزَحيّةِ وإنسانِ العينِ والقناةِ الدَّمعيّة، على درجةٍ كبيرةٍ من الدِّقة، وكان أولَ من كشفَ انقباضَ عَضَلاتِ العين. هذا بالإضافةِ إلى طُرقِه المُشوّقةِ في وصفِ الأمراضِ العقليةِ وعلاجِها، مما كان له الفضلُ في ابتكارِ كثيرٍ من طرقِ العلاجِ النفسي.

ولابنِ سينا الفضلُ العظيمُ في كَشْفَين هامَّين في عالَم الطب، فهو أولُ طبيبٍ قام بحقنِ المريضِ تحتَ الجلد، وكذلك أولَ من استخدمَ التخديرَ لإجراءِ العملياتِ الجراحية، مُستعملاً بعضَ النباتاتِ كالزُّؤَان والشَّيْلَم. ولو لم يكن لابنِ سينا غيرُ هذين الكشفين لكفاه ذلك فخراً واعترافاً بفضلِه على علم الطب. خاصةً إذا ما قارنّا بين ما كان يجري في عصرِه داخلَ البلادِ الغربيةِ وخارجَها. فالطبُّ في الغربِ آنذاك غَلبت عليه الخُرافاتُ والجَهل، كان المريضُ يُصْلبُ على شَجرة، ثم يَنهالُ عليه الطبيبُ ومساعدوه بالضربِ حتى يَخرجَ الشّيطانُ من جسدِه، فقد كان المرضُ في تصورِهم شَيطاناً يَسكُنُ جَسَدَ المريض.

في الفلسفة:

من أشهرِ كُتبِ ابنِ سينا الفَلسفية كتاب «الشفاء»، يَقصِدُ شفاءَ النَّفس، ويقعُ الكتابُ في سبعةَ عَشَرَ مجلداً، وهو موسوعةٌ كبيرةٌ في العلومِ والفلسفة. والكتابُ مقسمٌ إلى أربعةِ أقسام: المنْطِق، والطّبيعة، والرّياضة، وما بعد الطبيعةِ أو العلم الإلهيّ. وقد تأثّرَ بهذا الكتاب الكثيرُ من الفلاسفةِ في العصورِ الوسطى بأوروبا. ويقولُ الدكتور جورج سارتون، صاحبُ مرجعِ تاريخِ العلوم «إنَّ فكرَ ابنِ سينا يمثّلُ المثلَ الأعلى للفلسفةِ في القرونِ الوسطى».

ويُثْبتُ الكتاب أنَّ ابنَ سينا هو صاحبُ فكرةِ الاعتمادِ على التجربةِ في البَحث، وقد وَضَعَ شروطاً للبحثِ التجريبي، تشبهُ تلك التي نادَى بها «جون ستيوارت ميل» فيما بعد. لذلك نَراه يحاربُ التنجيمَ أو رَبْطَ اقدارِ البشرِ في حياتِهم اليوميةِ بحركاتِ الأجرامِ السماويةِ في أبراجِها، ويرفضُ الحُلمَ الخيالي الذي كان شائعاً في ذلك الحين بين الباحثين في علومِ الكيمياء، حولَ تحويلِ المعادنِ الرخيصةِ إلى ذهبٍ أو فضّة.

وخالفَ ابنُ سينا أَرسطو وأفلاطون وغيرَهما من فلاسفةِ

اليونان في كثيرٍ من الآراء. وقال إنَّ الفلاسفةَ يُخطئون ويصيبون كسائرِ الناس، وهم ليسوا معصومين من الزللِ والخطأ، وهو ما لَمْ يَجْرُؤْ على التصريحِ به الفلاسفةُ والعلماءُ في الأزمانِ التي سَبَقت أو تَلَت، إلاّ النادر ممن كانوا يَملِكون عَقْلاً راجحاً، أو استقلالاً في التفكير.

وفي كتاب «الشفاء»، يُبْدي ابنُ سينا عنايةً خاصةً بالنفس، فقد كان البحثُ في النفس، نشأتِها وأحوالِها وعجائِبها وخوارقِها محورَ فلسفتِه. وقد عَبَّرَ ابنُ سينا عن بعض آرائِه في النفس، في قصيدتهِ العَينية، والتي يقول في مطلعِها:

هبطت إليك من المحلِّ الأرفع
ورقاءُ ذاتُ تَعزُّزٍ وتَمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلِّ مقلةِ ناظرٍ
وهي التي سَفَرتْ ولم تَتَبرقَعِ
أَنِفتْ وما أَنِسَت فلمَّا واصلت
ألفتْ مجاورةَ الخرابِ البلْقعِ

في هذه القصيدة يقولُ ابنُ سينا، إن النفسَ البشريةَ قد هَبَطت من عالَم التجريدِ الذي تَنبَعُ منه النفوس، على الأبدانِ والأجسادِ التي هي المستوىَ الأدنى بالنسبةِ للنفس. ويقول إن النفسَ هبَطت من عالَمِها مُكْرَهة، وبعد أن اتَّصلت بالجسد، واعتادَت عليه، صَعُبَ عليها أن تفارقَه، ونسيت العالمَ العُلْويَّ الذي هَبَطت منه. ثم يصلُ في قصيدتِه إلى النفسِ وقد غادَرت الجسدَ عندَ الوفاةِ باكيةً في أولِ الأمرِ لهذا الفِراق، لكنّها لا تلبثُ بعدَ مُفارقةِ الجسدِ أن

تُذْركَ من الحقائق ما لم تكنْ تُدركه، فترتاحُ لذلك. وفي هذا يقول:

حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحِمَى
وَدَنا الرحيلُ إلى الفَضاء الأوسعِ
وَغَدَتْ مفارقة لكل مخلف
عنها حليف التُّربِ غير مُشيّعِ
سَجَعت وقد كُشِفَ الغِطاءُ فأبصرت
ما ليس يُدرَكُ بالعيونِ الهُجَّعِ
وبَدت تُغَرّدُ فوقَ ذُروةِ شاهقٍ
والعِلمُ يرفعُ كلَّ مَن لم يُرْفَعِ

في التحليلِ النفسي:

اتخذَ ابنُ سينا التحليلَ النفسيَّ أُسلوباً من أساليبِ العلاجِ الطبيّ، وقد مارسَه بنجاحٍ أكسبَه شُهرةً واسعة. وقد ذَكَرنا في مستهلِّ الكتاب، تلك الواقعةَ التي عالجَ فيها ذلك الأميرَ الذي تصوَّرَ نفسَه وقد انقلبَ إلى بَقَرة.

والتحليلُ النفسيُّ الذي عَرَفَه العالَمُ على يدِ العالِمِ «سيجموند فْرُويد»، لا يختلفُ كثيراً عما كان يفعلُه ابنُ سينا في علاجِ بعضِ الحالاتِ التي تَعْرِضُ له، عن طريقِ محاولةِ الوصولِ إلى ما يختفِي في العقلِ الباطن، ثم العملِ على اخراجِ هذه المكنوناتِ إلى العقلِ الظّاهر. والهدفُ من ذلك هو تخفيفُ الضغطِ على النفس.

وقد درسَ ابنُ سينا الاضطراباتِ العصبيةَ وعَرَفَ بعضَ الحقائِقِ النفسيةِ والمرضيةِ عن طريقِ التحليل النفسي. وكان يرى أَن العواملَ النفسيةَ والعَقلية، كالحُزنِ والخَوفِ والقلقِ والفَرَحِ وغيرِها، يكونُ لها التأثيرُ الكبيرُ في أعضاءِ الجسمِ ووظائِفها، ولهذا السببِ لجأَ إلى الأساليبِ النفسيةِ في معالجةِ مرضاه.

في الشعر:

لابنِ سينا الكثيرُ من القصائدِ المحفوظة، إلا أنَّ أكثرَ قصائدِه ضَاعت، ولم تُحفظ. ويمكنُ تقسيمُ شعرِ ابنِ سينا إلى ثلاثةِ أقسام، الأولُ شعرٌ شخصيٌّ يصورُ فيه أحوالَه الخاصّة، مثلُ القصائدِ التي أوردْنا مطالعَها عندَ فِراره من (كركانج)، أو عندَ حبسهِ في قلعةِ (فردجان). والثاني شعرٌ فلسفيّ، ومنه القصيدةُ العينيةُ في النفسِ التي ذَكَرنا بعضَاً من أبياتِها. والثالثُ شعرٌ تعليميٌّ يَتَضمّنُ معلوماتٍ في الطبِ أو علمِ المنطقِ، وفي كلِّ الأحوالِ يمتازُ شعرُ ابنِ سينا بالرَّصانة، واشراقِ الدّيباجة. ومعظمُ المعانِي التي نجدُها في قصائِده، تدورُ حولَ الحكمةِ والنفسِ والحياةِ والحَماسةِ والفخرِ وشكوى الزّمان، ثم الإقبالِ على الحياةِ والاستمتاعِ بها.

وكان ابنُ سينا يَرى أن على الإنسان أن يُهذّبَ نفسَه ويُغذّيَها بالحكمةِ لترقى:

هَذِّبِ النفسَ بالعلومِ لترقى
وذَرِ الكَلَّ فهي للكلِّ بَيتُ

إنـمـا الـنـفـسُ كـالـزُّجـاجـةِ والـعـلـ
ـمُ سـراجٌ وحـكـمـةُ الـلـهِ زَيـتُ

فـإذا أشْـرَقـتْ فـإنـك حـيٌّ
وإذا أَظـلـمـت فـإنـك مَـيْـتُ

ولـم يكـن ابنُ سينا شاعراً يَنظمُ القصائدَ فَحَسب، بل كان باحثاً في فنِّ الشعرِ من جميعِ نواحيه. وله كتابٌ في الشعر، يوازنُ فيه بين أغراضِ الشعرِ عند اليونانيين وعند العرب. كما أن له أكثرَ من بحثٍ في صَنعَةِ الشعرِ وأصولِ نظمِه.

في الموسيقى:

في كتاب «الشفاء»، قسمٌ باسْمِ جوامعِ الموسيقى، يتناولُ فيه ابنُ سينا الموسيقَى بالدراسة، ويعتبرُها علماً من العلومِ الرياضيةِ كالحِسابِ والهندسةِ والفلك. ويقولُ في تعريفِه الموسيقَى إنها «علمٌ رياضيّ، يبحثُ فيه عن أحوال النغمِ من حيثُ تأتلفُ وتتنافر، وأحوالِ الأزمنةِ المتخللةِ بينها، ليعلمَ كيف يؤلّفُ اللّحن. وقد دلَّ حدُّ الموسيقَى على أنه يشتملُ على بَحثين: أحدُهما البحثُ عن أحوالِ النغم نفسِها، وهذا القسمُ يختصُّ باسْمِ التأليف. والثاني البحثُ في أَحوالِ الأزمنةِ المتخللةِ بينها، وهذا البحثُ يختصُّ باسْمِ الإيقاع».

ولابنِ سينا تفسيراتٌ في اتفاقِ الأصواتِ وتنافرِها، على أساسِ النسب والأعداد، وفي الأنغامِ المتتاليةِ والممتزجة. وقد أخذت أوروبا نظريةَ تآلفِ الأصواتِ (الهارموني) عن ابنِ سينا، حيث كانت كتاباتُه عن هَذا الموضوعِ ضمنَ ما تُرجمَ إلى اللاتينية في العصورِ الوسطى.

وهو صاحبُ الفضلِ في تَدوين «النوتة الموسيقية»، وكان

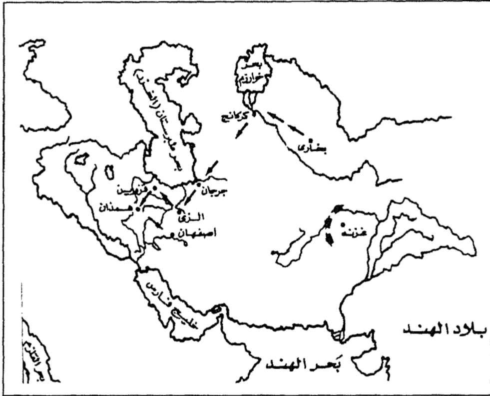
العربُ يكتفون قبلَه بإطلاقِ أوصافٍ على الألحان. وقد استطاعَ العلماءُ الذين اطَّلَعوا على كتابِه، ممن جاؤُوا بعدَه، حلَّ رموزِ النوتة الموسيقية التي وَرَدت في «جوامعِ علمِ الموسيقى».

في الطبيعة:

دَرَسَ ابنُ سينا العلمَ الطبيعي، وكانت له فيه أبحاثٌ قَيّمة، عن المكانِ والزمانِ والحيِّز والأجسامِ والامتدادِ والفَراغِ والحرارة والتنوير. وقال إنَّ سرعةَ النورِ محدودة، وإن شعاعَ العينِ يأتِي من الجسمِ المرئيِّ إلى العين، وأجرى العديدَ من التجارِبِ على الوزنِ النوعيِّ للمعادن.

ولابنِ سينا بعضُ الأبحاثِ النفيسةِ في المعادن، وتكوينِ الجبالِ والحجارةِ، كانت لها مكانةٌ خاصةٌ في علمِ طَبَقاتِ الأرض، واعتمدَ عليها علماءُ أوروبا، وبقيت معمولاً بها في جامعاتِهم حتى القرنِ الثالثَ عشرَ الميلادي. وكانت له ملاحظاتٌ لم يَسبِقْه إليها أحدُ معاصريه، عن الرياحِ والسُّحبِ وقوسَ قُزح. كما ابتكرَ آلةً لقياسِ طولٍ أصغرَ من أصغرِ أقسامِ المِسْطَرةِ المقسَّمة، لقياسِ الأطوال بدقةٍ متناهية.

مدن هامة في حياة ابن سينا



بخارى:

مدينةٌ عندَ نهرِ جَيْحون، كانت قاعدةَ الدَّولةِ السَّامانيّة، بدأَ فيها ابنُ سينا حَيَاتَه. وهي اليومَ ضِمنَ جمهوريةِ أوزبكستان السّوفييتية.

كركانج:

ويطلقُ عليها أيضاً اسمُ (الجَرْجَانية)، عاصمةُ الخُوَارِزْميّين،

مدينةٌ في أقصَى الشِّمال، تقعُ اليومَ في جمهوريةِ تركمانستان السوفييتية.

جَرْجان:

تقعُ جنوبيّ شرقيّ بحَرِ قَزْوين، هَدَمها المَغُولُ في القَرنِ الثامنِ الميلادي. وكانت عاصمةَ امارةِ طَبَرِسْتان.

الرِّي:

كانت مدينةً عظيمةً بمنطقةِ الجبالِ من فارس، اسمُها القديمُ (راغا)، ومنه اشتُقَّ الاسمُ العربي. وُلدَ فيها هارونُ الرشيدُ الخليفةُ العباسي، وأبو بكرٍ الرازيُّ الطبيبُ العربيُّ الشهير. وهي الآن أطلالٌ متهدمةٌ على بُعدِ خمسةِ كيلومترات جنوبيّ شرقيَّ العاصمةِ الإيرانية طَهران.

قزوين:

من أعظمِ بلادِ الجِبالِ في فارس، وهي وطنُ العَلاَّمة زكريّا بنِ محمدٍ القزوينيِّ صاحبِ كتابِ «عجائبِ المخلوقات وغرائبِ الموجودات» في الفلكِ والجغرافية والطَّبيعيات.

هَمَذان:

مدينةٌ بمنطقةِ الجِبالِ في فارس. كانت قاعدةَ مَملكةٍ قديمةٍ تسمَّى مَملكةَ «ميديا». وهي وطنُ صاحبِ المقامات، بديعِ الزَّمان الهَمَذاني.

أصفهان:

ويقالُ لها أيضاً (أصْبهان)، مدينةٌ قديمةٌ في مِنْطَقةِ الجبالِ في

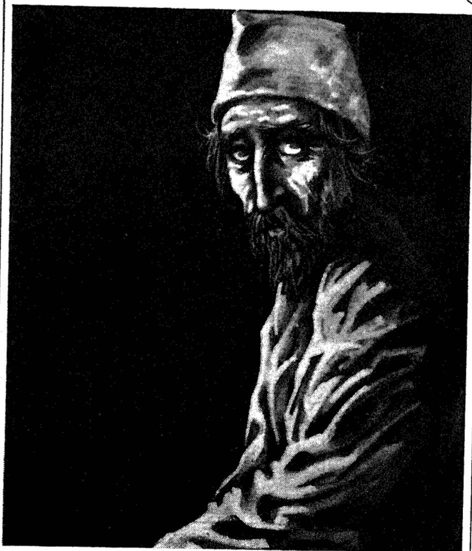
فارسٍ، دخلَها الاسكندر الأكبرُ المقدونيُّ وسَلَبَهَا. وهي موطن أبي الفَرَجِ الأصفهانيِّ صاحبِ كتابِ «الأغاني». وفيها ماتَ ابنُ سينا.

غَزْنة:

هي عاصمةُ الدَّولةِ الغَزْنَوية، وكانت دولةً قويةً بَسَطت نفوذَها على الهندِ والبِنْجَاب. وَورِثت مُلك السَّاسانيين. وهي مقرُّ السلطانِ محمودِ بنِ سُبُكْتَكِين، الذي كانت رحلاتُ ابنِ سينا في أغلبها، هَرَباً من الوقوعِ بين يديه. وتقعُ غَزنةُ اليومَ داخلَ حدودِ افغانستان.

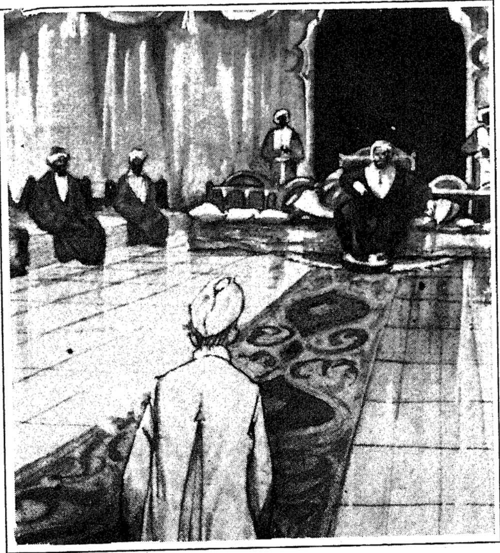
الفَارابي

المعلِّم الثاني



هُوَ

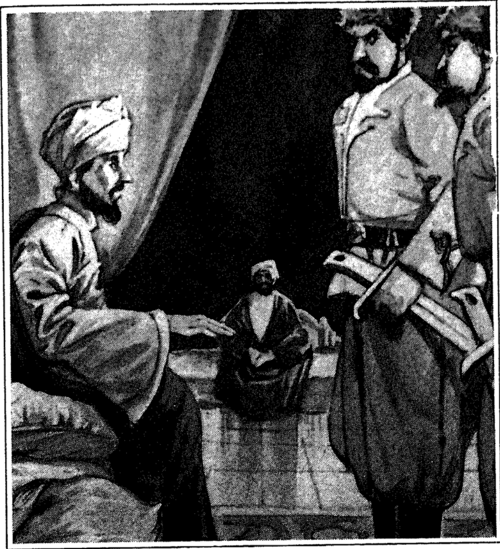
أبو نصر
محمّد بن
طَرْخان



عندما كان الفارابي في دمشق، دخلَ على أميرِها سيفِ الدولةِ الحَمَداني، وكان في مجلسِه، تَحُوطُه مجموعةٌ من العلماء. وقفَ الفارابي أمامَ سيفِ الدولة، يرتَدِي زِيّه التركي، فقال سيفُ الدولة «اقعد»، قال الفارابي: «حيث أنا أم حيث أنت؟» أجابَ سيفُ الدولة: «حيث أنت».



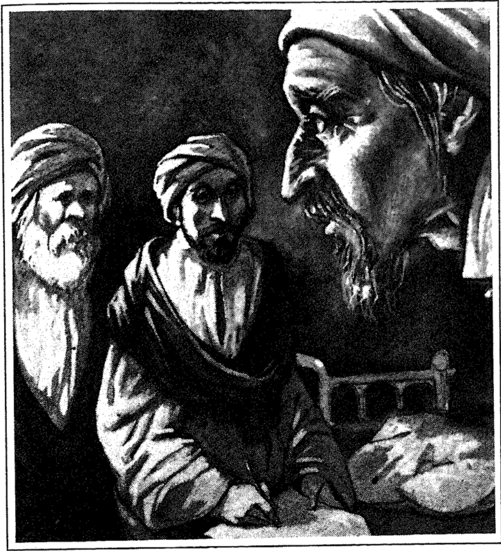
فما كان من الفارابي إلاَّ أن تَخطَّى جميعَ الحاضرين، حتى وصلَ إلى الأريكةِ التي يجلسُ عليها سيفُ الدولة، واندفعَ بجسمِهِ يزاحمُه عليها، حتى كادَ سيفُ الدولةِ أن يسقطَ من فوقِ أريكتِه.



كان في القاعةِ بعضُ مماليكِ سيفِ الدولةِ من الأعاجم، فقال لهم بلغتِهم: «إن هذا الشيخَ قد أساءَ الأدب، وسأمتحنُ معارفَه، فإذا رَسَبَ في هذا الامتحان، خُذُوه فاقتلوه».



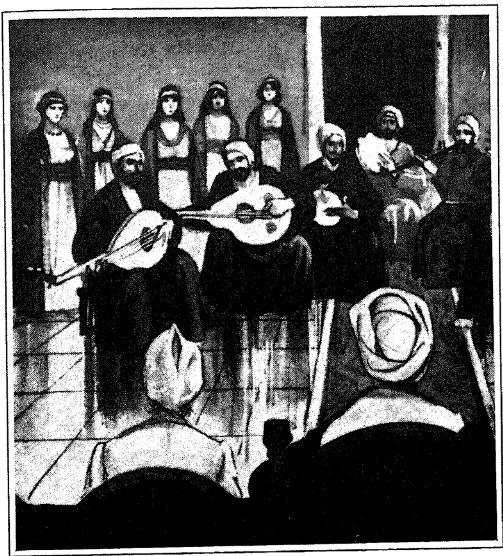
فوجىءَ سيفُ الدولةِ عندما وجدَ الفارابي يقول له بنفسِ اللغةِ التي يتكلمُ بها مع المماليك: «أيُّها الأمير، اصبر، فإن الأمورَ بعواقبِها». سأله سيفُ الدولةِ متعجباً: «أتتكلمُ بهذه اللغة؟». فقال الفارابي: «بل أجيدُ الكلامَ بسبعين لُغة».



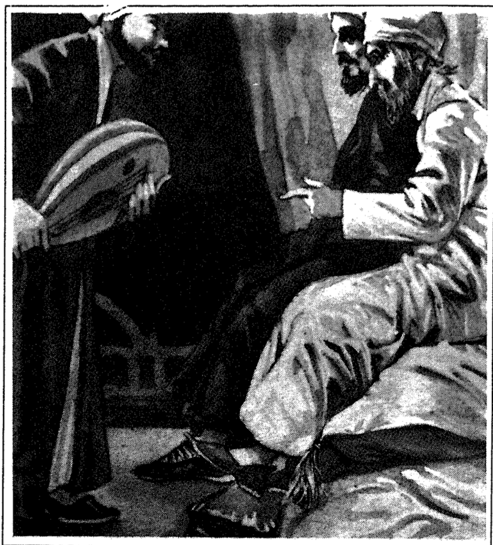
أخـذَ الـفـارابـي يـجـادلُ الـعـلـمـاءَ الـحـاضـريـن، كُـلاً في تـخـصـصِـه، وعـنـدمـا وجدوه يفوقُهم علماً في كلِّ المسائل، صَمَتوا. . . وبقيَ الفارابي يتكلمُ وحدَه، فما كان منهم إلاَّ أن أخرجوا أوراقَهم وأقلامَهم، وراحوا يسجّلون ما يَنطِقُ به، اعترافاً بعلمِه.



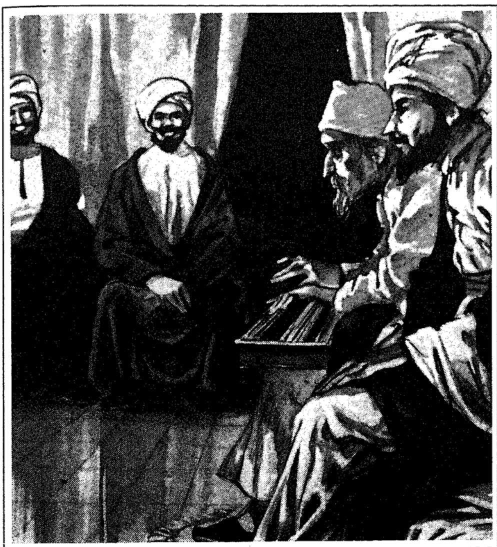
أحسَّ سيفُ الدولةِ الحمداني بقيمةِ ذلك الرجلِ الذي غَضِبَ لتصرفِه، وكادَ أن يقتلَه. وأرادَ أن يعرفَ المزيدَ عنه. طلبَ من الحاضرين الانصراف، فخلا المجلسُ من الناس، وعندما أرادَ الفارابي أن يلحقَ بهم، طلبَ منه سيف الدولةِ أن يبقَى معه.



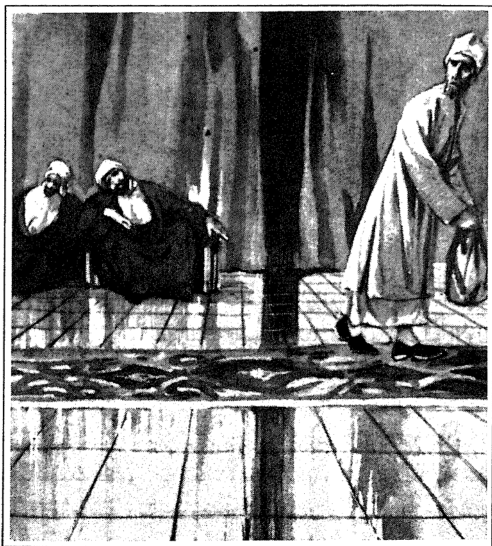
عندمَا هَدَأت جَلَبَةُ المنصرفين، سألَ سيفُ الدولة: «هل لك أن تأكل؟».. فأجابَ الفارابي: «لا..» فسأل: «فهل تَشرب؟».. أجاب: «لا..» فقال: «فهل تسمع؟».. فقال الفارابي: «نعم».. وكان أن أمرَ سيفُ الدولة بإحضارِ العازفين والعازفَاتِ والمغنّين والمغنيات.



جَلَسَ سيفُ الدولةِ وإلى جوارِه الفارابي، ومِن حولِهما أهلُ العزفِ والغِناء.. وكلما عزفَ أَحدُهم شيئاً، أو غنَّى لحناً، أسرعَ الفارابي ينتقدُه، ويبيّنُ له نواحيَ النقصِ والقصور. فسألَه سيفُ الدولة: «وهل تُحسنُ هذا الفنَّ أيضاً؟.. أجابَ الفارابي: «نعم».



أخرجَ الفارابي من ملابسِه كيساً من القُماش، ومن داخلِه أخرَجَ قِطعاً من الخشب، ورَاحَ يركّبُها، ثم لعبَ بها، فأطلقَ ألحاناً أضحكت الموجودين. وعادَ بعدَ ذلك وفكَّها، وركَّبَها بطريقةٍ جديدة، ليعزفَ عليها ويُبكي السامعين.



وفي النهاية، أعادَ الفارابي فكَّ أجزاءِ هذه الآلة، وركَّبَها بشكلٍ ثالث، وعزفَ عليها ألحاناً غريبة، جعلت سيفَ الدولة ومن في مجلسِه، ينامون جميعاً!.. حتى الحرسُ الذين كانوا عندَ الأبوابِ فتركَهم الفارابي نياماً وانصرف.

عصرٌ غريب:

هو أبو نَصر، محمدُ بنُ محمدِ بنِ أوزلغ بنِ طَرْخان، الشهيرُ باسمِ الفارابي، صاحبُ لقبِ «المعلّم الثاني» بعد المعلم الأولِ أرسطو.. وأعظمُ فلاسفةِ الإسلام، صاحبُ المؤلفاتِ القيِّمَةِ في الفلسفةِ والمنطقِ والموسيقى والعلوم، درسَ في كتبِه واستفادَ منها الفيلسوفُ الكبيرُ أبو علي بنُ سينا. وقال روجر بيكون عن مؤلفاتِهِ: «إنَّها مَهَّدت لظهورِ ابنِ سينا وابنِ رشد، وكانت نِبراساً لحكامِ الشرقِ والغرب، وسِراجاً وهَّاجاً يستضيئون بنورِه، ويسيرون على هداه». وكان الفارابي أولَ من وَضَعَ النوَّاةَ لدوائرِ المعارفِ في العالَم.

وُلدَ الفارابي في بلدة تسمّى (وسيج)، من مدنِ فاراب. في بلادِ ما وراءَ النهر، بآسيا الوسطى (تركستان) حَوَالى عام ٨٧٣ م (٢٦٠ هـ). وتوفي في الثَّمانين من عمرِه، عام ٩٥٠ م (٣٣٩ هـ).

عاشَ في عصرٍ غريب، دبَّ فيه الضعفُ في كيانِ الدولةِ العبّاسية، بعد تزايدِ نفوذِ التركِ والفرسِ والدَّيْلَم والسَّلْجوقيين، وأصبحت الخلافةُ رمزاً لا غير. ولدَ الفارابي وعاشَ في عصرِ نفوذِ

الأتراكِ القويّ في الدولةِ العباسية (٢٣٢ ـ ٣٢٤ هـ)، وكانت الحالةُ السياسيةُ خاضعةً للصراعِ بين سلطةِ الخليفةِ من ناحية، وسلطةِ الأتراكِ من الناحيةِ الأخرى. كانت كلُّ سُلطةٍ تَفتِكُ بالأخرى كلما أُتيحت لها الظّروف. فكَثُرت المكائدُ والمؤامراتُ والاغتيالات.

كان من نتيجةِ هذا، أن أعلنَ حكامُ الأقاليمِ استقلالَهم الداخلي.. وانقسمت الدولةُ العباسيةُ الكبيرةُ إلى دولٍ ودويلات وإمارات، وقد تنتسبُ إلى الخلافةِ العباسية اسماً، لكنّها كانت فيما عدا ذلك، تستقلُّ بنفسِها استقلالاً كاملاً.

وُلد الفارابي وشبَّ ليرى صورةَ العربِ كما كانت عليه في تلك الفترة، سلسلةً من الخلفاءِ الضّعفاء، وازدياداً للنفوذِ التركي، وتدخّلاً من النساءِ في شؤونِ الدولة، خلفاءَ يُقتلون، وخلفاءَ يُضربون ويُعذَّبون ويهانون.. دولاً تَتمرَّدُ على الخلافةِ فتعلنُ استقلالَها.. بل يصلُ الأمرُ إلى حدٍّ أن حاكماً مثلَ عبدِ الرحمنِ الثالث، يسمّي نفسَه أميرَ المؤمنين الناصرَ لدينِ الله، وينصّبُ نفسَه خليفةً على الأندلس.

زهدٌ وتَقدير:

ومع أن الفارابي عاشَ حياتَه زاهداً في المالِ والسلطة، لا يتصلُ بالسياسةِ إلاً في فكرِه ورؤيتِهِ للحياةِ المثاليةِ الفاضلة. فقد كان هذا هو حالُ الدولِ العربيةِ، التي جَالَ فيها، من الناحية السياسية. وعلى أي حال، فقد كان حكامُ الدولةِ، والأماراتِ ينظرون إلى الفارابي كعالِمٍ جليلٍ، يحظى بالاحترامِ والتقدير، كما كان الحالُ مع سيفِ الدولةِ الحمداني.

مع انحسارِ نفوذِ الدولة العباسية وتفككِها، انتهى وضعُ بغدادَ كعاصمةٍ وحيدةٍ للدولةِ الإسلامية، كما انتهَى وضعُها كمركزٍ وحيدٍ للحضارةِ والثقافةِ والصناعة. فَحَرَصَ كلُّ أميرٍ أو حاكمٍ في الدولِ والأمارات التي استقلّت، على أن يجتذبَ إلى عاصمةِ مُلكِهِ، أعظمَ الفلاسفة، وأكبرَ العلماء، وخيرَ أهلِ الفنّ والأدب.

في ذلك العصر، دَخَلت الرفاهيةُ إلى الحياةِ الاجتماعية، خاصةً بين الطبقاتِ العليا والأغنياء، فَظهرت فنونُ الهندسةِ الشرقيةِ في قصورِ الخلفاءِ والأمراءِ والقادةِ والتجار، فكانت دورُهم فخمةً ذاتَ اتساع، تضمُّ حدائقَ غَنَّاء، وتحتوِي على الثمينِ من الأثاث، واقتبسَ العبّاسيون نظامَ مجالسِهم عن الفرس، بكلٍّ ما عُرِفَ عنهم من ترفٍ وبذخ، فانتشرت مجالسُ الغِناءِ والطّرب، يَعْقِدُها الخلفاءُ والحكام، وَيَحضُرُها الشعراءُ والمغنّون والأدباءُ والموسيقيون وأهلُ الفكاهة. وسارَ أمراءُ باقِي الدولِ والاماراتِ على نهجِ الخلفاء في اقتباسِ مظاهرِ الحضارةِ وتقاليدِها.

ومع هذا، أو بسببِه، أزدهرت الصّناعة، ونمت التجارةُ والزراعة، فتقدمت الصناعاتُ اليدوية، واشتُهِرَت كلُّ مدينةٍ بنوعٍ خاصٍّ من الصناعةِ يتوارثُه الأبناءُ عن الآباءِ. وكان الصناعُ يسعونَ إلى انتاجِ ما يحتاجُه الحكامُ ووجهاءُ المجتمعِ في تَزيين دُورِهم بأغلى الأثاث، وانتشرت صناعاتُ النسيجِ والأواني والنّحاس.

وإذا كان ذلك هو حالُ الحكامِ والأثرياءِ والوُجَهَاء، فمن الناحيةِ الأخرى نَرَى صورةً مغايرة، نرى اختلالَ الأمنِ بسببِ كثرةِ الحروبِ بين الأمراء، وبسببِ غاراتِ الجندِ وانقلاباتِهِم، مما أشاعَ

البِطَالةِ بين الناس، وجعلَ عامةَ الشعبِ تُعَانِي من الفقرِ وافتقادِ الأمن والطُمأنينة.

وقد ولدَ الفارابي وعاشَ وماتَ، في عصرٍ تعدَّدت فيه الحَرَكاتُ الدينية، بتعدُّدِ الحَرَكاتِ السياسية. شَبَّ الفارابي ليرى من حولِه ثَوراتٍ شعبيةً تنشرُ مذهبَ الشيعة، وحركات سياسيةً دينيةً يقومُ بها الخوارجُ مع حركاتٍ أخرى يقومُ بها الزَّنْج، وليعاصرَ انتعاشاً لمذهبِ المعتزلة، وذيوعاً لمذهبِ السنةِ على يدِ الأشعري، ثم الغزالي مِن بعدهِ، وتطوراً لبعضِ آراءِ المتصوِّفة.

هذه صورةٌ عامةٌ للعصرِ الذي نشَأَ فيه الفارابي وشَبَّ وتعلَّم وكَتَب وأفادَ واستفاد.

عربيُّ الموطنِ والثقافة:

اشتُهِرَ أبو نصرٍ بلقبِ الفارابي، نسبةً إلى مَسْقَطِ رأسِه في (فاراب)، وهي منطقةٌ كبيرة وراءَ نهرَي جَيْحون وسَيْحون، وتقعُ على جانبِ الفرعِ الأكبرِ لنهرِ سيحون، في طرفِ بلادِ تركستان، ويطلقُ أيضاً اسمُ (فاراب) على عاصمةِ هذه الولاية. وهكذا اكتسبَ أبو نصرٍ لقبَه من نسبتِه إلى ولايةِ (فاراب) التي تضمُّ مدينةَ (وسيج) التي ولدَ فيها.

ونظراً لأنَّ الفارابي لم يدوِّن شيئاً عن تاريخِ حياتِه، فقد تعددت الأقوالُ في الكثيرِ من تواريخِه وأحداثِ حياتِه. فمع أن معظمَ المؤرخين الذين كتبوا عن الفارابي يقولون إنه تركيُّ الأصل، فقد قال أحدُهم، وهو ابنُ أبي أُصَيْبِعة: إن أباه «كان قائدَ جيش،

وكان فارسيَّ المنتسب». وعلى أي حال، يصعبُ علينا الآنَ أن نصلَ إلى قولٍ محددٍ في هذا المجال، نتيجةً لتقاربِ البلادِ التركيةِ والبلادِ الفارسية. وكثرةِ تنقُّلِ الناسِ بين هذه البلادِ وتلك.

وإذا كان الفارابي تُركيَّ الأصل، كما يقولُ أغلبُ المؤرّخين، أو كان فارسيَّ الأصل، كما يقولُ ابنُ أبي أصيبعة، فالذي يهمُّنا في هذا المقامِ أنه كان عربياً، عربياً في موطنِه وثقافتِهِ وانتمائِه. ففي ذلك العصرِ كانت قد انتشرت اللغةُ العربية، في (فاراب) شأنُها شأنُ بلادِ فارسَ وخراسان وأذربيجان، وشاعَ الأدبُ العربي، والثقافةُ الاسلامية.

كما أنّ الفارابي، عندما غادرَ (فاراب)، لم يرجعْ إليها، وأمضى سنواتِ دراستِهِ وانتاجِهِ في عددٍ من العواصم العربية. . . بغدادَ، وحَلَب، ودمشق، ومصر. وثقافةُ الفارابي في بغدادَ أو الشام، كانت ثقافةً عربية، ترتكزُ على علوم عربية، وعلى مبادىءِ الدين الإسلاميّ وتعاليمِه، كما أن مؤلفاتِ الفارابي التي زادت عن المئة، كانت كلُّها باللغةِ العربية.

لهذا استحقَّ الفارابي لَقَبَ «فيلسوف العرب» ذلك لأنه كان عالماً عربياً مبتكراً، وفيلسوفاً عربياً مُبْدعاً، وموسيقياً عربياً بارعاً، كما كان أديباً عربياً في علمِه وثقافتِهِ وموطنِه، ومؤلِّفاً من كبارِ المؤلفينِ العرب.

بدايةٌ مجهولة:

وطفولةُ الفارابي لا نعرفُ عنها إلاَّ أقلَّ القليل، كذلك الأمرُ

بالنسبةِ إلى صباه وشبابِه، فكلُّ ما نعرفُه يتصلُ بمراحلِ حياتِهِ التالية:

نعرفُ أنه عندما بلغَ سنَّ التعليم، اهتمَّ في مسقِطِ رأسِه بدراسةِ طائفةٍ من موادِّ العلوم، والرّياضيات، والآداب، والفلسفة، واللغات. وهو بالطبعِ بدأَ بدراسةِ اللغةِ التركيةِ. لغتِهِ الأصلية، ثم درسَ بعد ذلك اللغاتِ الفارسيةَ واليونانيةَ والعربية.

وكما اختلفَ المؤرّخون في تحديدِ سنةِ ميلادِه، وفي حقيقةِ نسبِه، اختلفُوا كذلك في الوقتِ الذي غادرَ فيه (فاراب) متجهاً إلى بغداد. معظمُهم يقولُ إن رحلتَه الأولى إلى بغدادَ تمت عندما كان في الخمسين من عمرِه. والبعضُ يقولُ إنه غادرَ (فاراب) في صباه. وعندما بلغَ سنَّ الرشد، طافَ بالعديدِ من البلدان، حتى استقرَّ في نهايةِ الأمرِ ببغداد. وأياً كانت حقيقةُ الذي حدث، فإن الذي يهمُّنا في هذا، هو أولُ تاريخٍ مفصلٍ لحياتِه. حيث يظهرُ لنا فيه الفارابي وهو في الخمسين من عمرِه، مقيماً ببغداد.. يَدْرسُ فيها على عددٍ من أفضلِ العلماء.

تفوّق على أساتذته:

دخلَ الفارابي بغدادَ حَوالى عام ٩٢٢ م (٣١٠ هـ). وكانت بغدادُ في ذلك الوقت مركزاً للحضارةِ والعلم. ورغم تعددِ العواصمِ الثقافيةِ العربيةِ في ذلك الحين، إلاّ أن بغدادَ بقيت لها الصّدارة، بحكمِ تاريخِ التفوقِ الذي عاشَته. دخلَ الفارابي بغدادَ في عهدِ الخليفةِ المقتدرِ العباسي. وصلَ إليها وفي عزمِه أن يستفيدَ من وجودِه بين طائفةٍ من أفضلِ العلماءِ في مختلفِ التخصصاتِ والعلوم.

بدأ بدراسةِ اللغةِ العربيةِ على يدِ أبي بكر بنِ السَّرَّاج، كذلك دَرَسَ عليه النحو. وقد رَوَى الرواةُ أنّ الفارابي كان يتعلّمُ اللغةَ والنحوَ من أبي بكرِ بنِ السراج، وأن ابنَ السّراج كان في نفسِ الوقتِ يتعلمُ منه علمَ المنطق. وقد تمكّنَ الفارابي من اللغةِ العربية، وهذا هو الذي جعلَه يستعملُ ألفاظاً ومصطلحاتٍ عربيةً في الفلسفةِ والمنطقِ والحِكمةِ، تصعبُ جداً على مَن لا يُتقنُ العربيةَ إتقاناً تاماً.

وعندما دخلَ الفارابي إلى بغداد، كان بها أبو بشرٍ متّى بنُ يونسَ الحكيمُ المشهور، وكان الناسُ يَدرسون المنطقَ على يديه، وفي حلقةِ دروسِه كان التلاميذُ يَجتمعون بالمئات، يستمعون إلى شرحِه لكتابِ أرسطو في المنطق. وكان ذلك العالمُ الجليلُ يتميّزُ عن غيره بالفهم العَميق، وحسنِ العبارة، وكان يستعملُ في تأليفِه كلَّ ما من شأنِه أن يُبسّطَ المعاني التي يتناولُها، فيضعُ لها الشروحَ والهوامش. وقد استفادَ الفارابي من هذا الأستاذِ أكبرَ فائدة، وأخذَ عنه طريقتَه في عرضِ أكثرِ المعاني غُموضاً بعباراتٍ سهلة، وألفاظٍ بسيطةٍ ليس فيها تعقيد.

سمعَ الفارابي بعد ذلك عن الأستاذِ يُوحنّا بنِ خيلان، الذي يعيشُ في مدينةِ (حرّان)، فسافرَ إليه، ليدرسَ على يديه الفلسفةَ والمنطق. وقد استفادَ الفارابي من معرفةِ ابن خيلان بعلومِ الطبّ، فدرسَ الطبَّ على يديه، وإن لم يشتغلْ به الفارابي بعد ذلك. . وعندما انتهتْ دراسةُ الفارابي في (حران)، عادَ إلى بغدادَ.

عاد الفارابي إلى بغداد، ليواصلَ دراسةَ الفلسفةِ والمنطق، ثم

اتّجه إلى دراسةِ الرياضياتِ والموسيقى. وظلَّ الفارابي ينهلُ من معينِ العلمِ في بغداد، يقرأُ ويدوِّن الملاحظات، ويحضر مجالسَ الحكماءِ والعلماء، حتى تفوّق في علمه ومعرفتِه على أساتذتِه.

المعلم الثاني

ويروي بعضُ المؤرّخين أن سرَّ اهتمام الفارابي بالفلسفةِ والحِكمة، هو أن رجلاً من طُلابِ العلم، أَوْدعَ عندَه جملةً من الكتبِ لأرسطو كأمانة، وأنَّ الفارابي أخذَ يقرأُ في هذه الكتب، فأعجبتْه الموضوعاتُ التي تتحدث عنها. وهكذا انْكَبَّ على هذه الكتب، يستوعبُ ما بها، ويتفهّمُ معانيها، حتى أحاطَ بها، وصارَ فيلسوفاً كبيراً.

كما يَروِي مؤرّخٌ آخر، أنه وجدَ نسخةً من كتابِ «النفس» لأرسطو، وقد كُتِبَ عليه بخطِّ أبي نصرِ الفارابي: «قرأت هذا الكتابَ مائةَ مرة». كما يُنقلُ عن الفارابي أنه كان يقول: «قرأتُ السَّماعَ الطبيعيَّ لأرسطو أربعين مرة، وأرى أنني محتاجٌ إلى معاودةِ قراءتِه مرةً أخرى». من هذه الرواياتِ يمكننا أن نتصوَّرَ الجُهدَ الجادَّ الذي كان الفارابي يبذلُه لتحصيلِ العلم، وتفهّمِ المراجعِ التي كَتبها مَن سبقَه من العلماءِ والحكماء، ومحاولاتِه للغوصِ إلى أعماقِها، بكل دأبٍ وحِرصٍ وإخلاص. يقرأُ المرجعَ المرةَ بعدَ المرة، وفي كل قراءةٍ جديدةٍ يكتشفُ ما خفيَ عليه في القراءةِ السابقة. لهذا أصبحَ الفارابي مستوعباً لجوهرِ ما قرأ من كتبِ أرسطو وغيرِه، كما أصبحَ قادراً على الإضافةِ إليها، ونقدِها وتصحيحِ ما يراه مستوجِباً التصحيح، فيُفيدُ من جهدِه كلُّ من أَتَوْا بعدَه.

رأيْنا الفارابي في بغداد، وقد تجاوزَ الخمسين من عمرِه، يَدْرسُ الفلسفةَ والمنطقَ والرياضياتِ والموسيقى واللغة، يَسعى إلى كبارِ الأساتذة، مسافراً من بغدادَ إلى (حران)، لا يجدُ في ذلك حَرَجاً، ولا يجدُ في كبرِ السنِّ مانعاً عن مواصلةِ الدرسِ والبحث. وبهذا استحقَّ الفارابي اللقبَ الذي عُرفَ به «المعلم الثاني»، وارتباطُ هذا اللقبِ بالفارابي يُرجعُه بعضُ المؤرخين إلى الواقعةِ التالية:

في زمنِ الخليفةِ المأمون، قامَ عددٌ من المترجمين بإنجازِ ترجماتٍ مختلفةٍ لكتبِ أرسطو المهمة. وجاءت هذه الترجماتُ مُختلطة، لا تتفقُ ترجمةٌ منها مع الترجمةِ الأخرى. لهذا لم يستقرَّ الرأيُ لزمنٍ طويلٍ على ترجمةٍ منها يوثقُ بها، حتى أشرفت أوراقُ هذه الترجماتِ على التلف. وعندما كان الفارابي في بغداد، أُوكِلَ إليه أن يجمعَ هذه الترجمات، ويراجعَها، ويستخلصَ منها ترجمةً كاملةً مطابقةً للأصل. فاهتمَّ الفارابي بهذا العمل، وأنجزَ المهمةَ الموكولةَ إليه خَيرَ إنجاز، ووضعَ ترجمتَه تحتَ اسم «التعليم الثاني» على اعتبارِ أن التعليمَ الأول، قامَ به المعلمُ الأولُ أرسطو، ومن هذا اكتسبَ الفارابي لقبَه العلميَّ الذي عُرفَ به «المعلم الثاني».

في بغدادَ لم يكتفِ الفارابي بالدراسةِ والاطّلاعِ والترجمة، بل عَكَفَ على إنجازِ العديدِ من المؤلفات. ويقال: إن أكثرَ مؤلفاتِه كتبَها في بغداد. وقد اشتُهرت كتب الفارابي في ذلك الوقت، وتهافت التلاميذُ على مجلسِه، يستمتعون بغزارةِ علمِه، ووضوحِ رؤيتِه.

حارسُ البساتين:

المعروفُ عن الفارابي أنه كان مولعاً أشدَّ الولعِ بالسفرِ والتَّرحال، يطلبُ العلمَ في كلِّ مكان، ويسعى إليه حيث يوجد. ورغمَ أن مكانتَه كانت قد تأسّست في بغداد، ورغم العددِ الكبيرِ من التلاميذِ الذين كانوا يسعَوْن إليه. فقد سافرَ الفارابي إلى الشام، وكان ذلك حوالى عام ٩٤١ م (٣٣٠ هـ)، حيث اتصل بسيفِ الدولةِ الحمداني، أميرِ حلب، الذي عَرفَ للفارابي فضلَه، وأكرمَ وِفادتَه. فعاشَ الفارابي في كنَفِه، منقطعاً إلى التعليمِ والتأليف.

وهنا أيضاً تختلفُ الرواياتُ حولَ بدايةِ حياةِ الفارابي بالشام. فحكَى البعضُ تلك الروايةَ التي أوردناها في بدايةِ الكتاب. عندما دخلَ الفارابي على سيفِ الدولةِ لَدَى وصولِه إلى الشام، وكان يرتدِي زِيَّ الأتراك، فلم يتعرفْ عليه الأمير... إلى آخرِ الروايةِ التي تقول إن الفارابي اكتسبَ ثقةَ الأميرِ عندما وجدَه يعرفُ سبعين لغة، ويتفوقُ في علمِه على من كان في مجلسِ الأميرِ من العلماء، ويعزفُ على آلةٍ موسيقيةٍ من ابتكارِه، فيُضْحكُ من بالمجلس، ثم يَفُكُّها ويركّبُها كلَّ مرةٍ بطريقةٍ مختلفة، فيُبكيهم تارة، ويُنِيمُهم تارةً أخرى. ومن الواضحِ أن هذه الرواية، على طرافتِها، تتضمنُ الكثيرَ من المبالغات. فمع إجادةِ الفارابي للعديدِ من اللغات، كما قلنا من قبل، نستبعدُ أن يصلَ عددُها إلى سبعين، كما أن ذلك الحديثَ عن أثرِ عزفِ الآلةِ التي ابتكرَها الفارابي، تبدُو فيه المبالغة واضحة جلية.

وهناك روايةٌ أخرى تقولُ إن الفارابي، أولَ وصولِه إلى

الشام، اشتغلَ حارساً في بستانٍ من بساتينِ الفاكهة، يستغلُّ وقتَه في القراءةِ والاطلاع، لا يمتلكُ شيئاً غيرَ ما يتقاضاه نظيرَ حِراسةِ البستان. وإنه كان إذا حلَّ المساءُ يجلسُ تحتَ قنديلِ الحارسِ في البستان، يستكملُ القراءةَ والاطلاع.

أربعةُ دراهم:

أياً كانت الروايةُ الصحيحةُ لبدايةِ مُقامِ الفارابي بالشام، فالثابتُ أنه كان يعيشُ بها حياةَ زهدٍ وتقشّف. يتنقلُ بين مدنِها، خاصةً بين حلبَ عاصمةِ ملكِ الحَمَدانيين، ودمشقَ التي كانت تَدخلُ في مُلكِهم تارة، وتخرجُ أخرى.

أما عن حياةِ الزهدِ والتقشفِ التي كان يعيشُها، فالثابتُ أيضاً أن الفارابي لم يتزوّج، ولم يقتنِ مالاً، مع أن الفرصةَ كانت متاحةً له. ويُحكَى عنه، أنه عندما أبدى سيفُ الدولةِ الحَمَداني أميرُ حلبَ إعجابَه به، سألَه عن المال الذي يكفيه في حياتِه، فلم يطلبْ إلا أربعةَ دراهمَ فضيّةً في اليوم، يُنفقُها فيما يحتاجُ إليه من ضروريات الحياة. وهذا خيرُ دليلٍ على قناعةِ ذلك العالمِ الجليل وزهدِه، فقد كان بإمكانِه، وهو المقرّبُ لدى الأمير السخيِّ الكريم، أن يكتنزَ الذهبَ والفضة، ويقتنيَ الضيّاع، الأمرُ الذي كان يفعلُه غيرُه من العلماءِ والأدباءِ والشعراءِ الذين عاشوا في بَلاطِ سيفِ الدولة، أو اتّصلوا به.

آثرَ الفارابي أن يعيشَ حياةَ الزهدِ والتقشفِ هذه، متفرغاً للدراسةِ والقراءةِ والاطلاع، طالباً العزلةَ والوَحدةَ حتى يَخلوَ إلى التأملِ وإلى التفكير. كان طوالَ إقامتهِ في الشام، يَقضِي معظمَ وقتِه

في البساتين وعلى شواطىءِ الأنهار، يفكّرُ ويدوّنُ أفكارَه في أوراقِه التي يحملُها معه دائماً، ويجيبُ عن أسئلةِ تلاميذِه الذين كانوا يَسْعَوْن إليه حيث يكون.

ويقال في هذا: إن الفارابي لم يكن يدوّنُ أفكارَه في دفاترَ أو في كَراريس، على عادةِ ذلك الوقت، بل كان يسجّلُ خواطرَه في أوراقٍ متناثرة، وهو جالسٌ في البستانِ تحت أشجارِ السفرجل. وكثيراً ما كان يَغلِبُه النُّعاسُ من فرطِ الإجهاد. فينامُ في مكانِه، بينما تحملُ الريحُ بعضَ أوراقِه الثمينة، تنثرها هنا وهناك. وإلى هذا يُرجعُ بعضُ المؤرخين، ذلك النقصَ الواضحَ في بعضِ المؤلَّفاتِ المنسوبةِ إليه.

وفي عام ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ)، سافر الفارابي من الشام إلى مصر. وكان في أواخرِ سنواتِ عمرِه الطويل، والمعروفُ عن فَترةِ إقامتِه في مصر، أنه أثناءَ ذلك استكملَ تأليفَ كتابِه المعروفِ باسم «السياسة المدنية» وكان قد بدأَ تأليفَه في بغداد. لكنّه ما لبث أنْ عادَ إلى الشام حيث بقيَ بها حتى نهايةِ حياتِه.

أستاذُ ابنِ سينا:

كانت حياةُ الفارابي في بغدادَ وحلبَ ودمشقَ ومصر، حياةَ دراسةٍ وتدوينٍ وتعليمٍ وإنتاج. ولقد نبغَ الفارابي في الفلسفةِ بمعناها الواسعِ الذي كان مستخدَماً في ذلك الوقت، نبوغاً لافتاً للنظر، فقد تفوَّقَ في الفلسفةِ بوصفِها العلمَ الجامعَ الشاملَ الذي يضعُ أمامَ الإنسانِ صورةً كليةً شاملةً للكونِ بكلِّ ما فيه. لهذا اعتُبرَ الفارابي في أنحاءِ العالمِ كلِّه، أكبرَ الفلاسفةِ بعدَ أرسطو، وأعظمَ مَن شرحَ

ووضَّحَ ونشرَ آراءَ أرسطو، المعلِّم الأول، ولهذا حصَلَ بحقٍّ على لقبِ «المعلم الثاني».

كما يعتبرُ الفارابي المؤسسَ الحقيقيَّ للدراساتِ الفلسفيةِ في العالمِ العربي، والمنشىءَ الأولَ لما نسمّيه الآن (الفلسفة الإسلامية). لقد وضَعَ أساسَها، وشيَّدَ بنيانَها، فاعتمدَ عليه فلاسفةُ الإسلامِ الذين جاؤوا من بعدِه كلَّ الاعتماد. ويكفِي للتدليلِ على هذا، أن نوردَ قصةً جاءت على لسانِ ابنِ سينا الفيلسوف.

قال ابنُ سينا: «سافرت في طلبِ الشيخِ أبي نصر، وما وجدته، وليتنِي وجدته، فكانت حَصَلت إفادة». وهو يعنِي بهذا أنه سافرَ يبحثُ عن الفارابي ليستفيدَ من علمِه، فلم يوفَّقْ في ذلك، وهو يأسفُ لهذا، فقد كان من الممكنِ أن ينتفعَ بعلمِ الفارابي إلى حدٍّ بعيد.

ثم يوردُ ابنُ سينا قصتَه فيقول: «قرأت كتاب «ما بعدَ الطبيعة»، فما كنت أفهمُ ما فيه، والتُبسَ عليّ غرضُ واضعِه، حتى قرأتُه أربعين مرة، وصارَ محفوظاً، وأَيِسْتُ من فهمِه. فبينما أنا بعدَ صلاةِ العصرِ في الورَّاقين (المكتبات وباعة الكتب)، وإذا بدلاَّلٍ ينادِي على مجلّد، فعرضَه علي، فرددته ردَّ متبرِّم بِه، معتقداً أن هذا العِلمَ لا فائدةَ منه، فقال لي: اشترِ مني هذا فإنه رَخيص، أبيعُك إياه بثلاثةِ دراهم، وصاحبُه محتاجٌ إلى ثمنِه. فاشتريته، وإذا هو كتابٌ لأبِي نصرِ الفارابي في نفسِ أغراضِ كتاب «ما بعد الطبيعة». فرجَعت إلى بيتي، وأسرعت قراءتَه، فانفتحَ عليّ ـ في الوقت ـ أغراضُ ذلك الكتابِ وفَهمتُه، بسببِ أنه قد صارَ لي عن

ظهرِ قلب. فَرِحتُ بذلك، وتصدَّقت بشيءٍ على الفُقراء، شكراً للهِ تعالى».

هكذا يعترفُ العالمُ والفيلسوفُ الكبيرُ ابنُ سينا، بأستاذيْةِ الفارابي. فهو لم يفهمْ كتابَ «ما بعد الطبيعة» رغمَ أنه كان قرأه أربعين مرة، وحفظَه عن ظهرِ قلب. لكنّ ابنَ سينا، ما إن قرأَ كتاباتِ الفارابي الواضحةَ حولَ هذا الموضوع، حتى فهم كتابَ أرسطو، وتوصَّل إلى معانيه وأفكارِه.

«المدينةُ الفاضلة»

لم تكن الفلسفةُ هي الشاغلُ الوحيدُ للفارابي في هذه الفَترة. فبالرغمِ من أنه ـ على عكسِ ابنِ سينا ـ كان يبتعدُ عن أمورِ السياسةِ وشؤونِ الحكمِ في حياتِه اليومية، إلا أنّ هذا لم يمنعْه من التفكيرِ في السياسةِ والاجتماع. وكانت له في هذا المجال، الكثيرُ من الأفكارِ الناضجة، التي تَكشِفُ عن فهمِه العميقِ للموضوعِ الذي يتناوله. وقد كتبَ الفارابي في هذا الموضوعِ الكثيرَ من الرسائلِ والمؤلَّفات. ولعلَّ أهمَّ ما كتبَه في هذا المجال، كتابُه الشّهير «المدينةُ الفاضلة».

ومن الحادثةِ التي روَيناها في بدايةِ الكتاب، عَلِمْنا أن الفارابي قال لسيفِ الدولةِ إنَّه يُجيدُ سبعين لغة. ولا شكَّ أن هذا الرقمَ فيه الكثيرُ من المبالغة، التي نعتقدُ أن الفارابي ليس هو مَصدَرها، وإنما جاءت على ألسنةِ من نَقَلُوا الخبر، ورَوَوا الحكاية. لكن هذا لا يمنعُ الشهرةَ الذائعةَ التي حظيَ بها الفارابي في إجادتهِ للعديدِ من اللغات. ويكفي للتدليلِ على هذه الموهبة، أن الفارابي رغمَ أنه بدأَ

دراستَه لأصولِ اللغةِ العربيةِ ونحوِها في بغداد، وقد تجاوزَ الخمسين من عمرِه، فقد استطاعَ أن يتمكنَ من اللغةِ العربية، ليكتبَ بأسلوبِه الرائقِ الصافي، العديدَ من المؤلفاتِ التي تركَها لنا، ويشرحُ بلغةٍ سليمةٍ أعقدَ الأفكارِ والقضايا الفلسفية. بل إنه كتبَ العديدَ من الأشعارِ باللغةِ العربيةِ، وكلُّها على نمطِ ما يكتبهُ الفلاسفةُ من شعرٍ يتضمّنُ الحكمةَ والموعظة.

ورغمَ أن الفارابي لم يمارسْ مِهنَة الطبِّ ممارسةً عملية، فقد كانت له معرفةٌ واسعةٌ بالعلومِ الطبية، بمختلفِ فروعِها. ومع هذا لا يُعدُّ من بين الأطباء.. وهو وإن لم يطببِ الأجسام، فمرجعُ ذلك إلى أنه وقفَ حياتَه على تطبيبِ النفوس. لم يَحفِلْ بالعلومِ الجُزئية، بل اهتمّ بالعلومِ الكليةِ الشاملة، التي تضعُ أمامَ العقلِ البشريّ صورةً شاملةً للكون.

ومن المعروفِ أن الفارابي كان نابغةَ عصرِه في الموسيقى، وله فيها المؤلّفاتُ المشهورة، والمخترعاتُ والمبتكراتُ الكثيرة. ويقولُ أغلبُ المؤرخين إن الفارابي هو الذي اخترعَ آلة «القانون» الموسيقيةِ. ورغمَ المبالغةِ الواضحةِ في الحكايةِ التي حَدَثت للفارابي مع سيفِ الدولةِ الحَمَداني حولَ تلك الآلةِ الموسيقيةِ التي يعيدُ تركيبَها المرةَ بعدَ المرة، لتُضحكَ وتُبكي وتُنيمَ الحضور، رغمَ هذه المبالغة، فإنها لا شكَّ تكشفُ عن مقدرةِ الفارابي الموسيقية، وعن صيتهِ الذي ذاعَ في هذا المجال.

شهادةٌ من أهلِ الغرب:

لقد كان الفارابي في هذه الفترةِ من عمرِه مُنتجاً إلى أبعدِ

حدودِ الإنتاج. أخرجَ للناسِ من المؤلفاتِ والرسائلِ ما يزيدُ على المائة، بل وفي قول بعضِ المؤرخين ما يزيدُ على المائتين، تناولَ فيها الفلسفةَ بفروعِها وعلومَ النجوم والمنطقِ والأعدادِ والهندسةِ والموسيقى. وكان يدوّنُ كتبَه هذه، بأسلوبٍ ممتاز، لا إطالةَ فيه أو استطراد، عندما لا يقتضي الأمرُ ذلك، مع دقةٍ في التعبير، ومنطقٍ مرتَّب، في تتابعِ الحقائق، وربطِ الموضوعاتِ بعضِها ببعض.

ورغمَ العددِ الكبيرِ الذي وصلَ إلى أيدينا من مؤلفاتِ الفارابي، فمن المؤسفِ أن أغلبَ ما كتَبه لم يصلْنا، وضاعت أغلبُ رسائِله خلالَ الفِتنِ والإنقلاباتِ والحروبِ التي اجتاحت المِنْطَقة. ومما يذكرُ أن بعضَ الأوروبيين عندما وَقعت في أيديهم بعضُ رسائلِ الفارابي القيّمة، نَقلوا محتوياتِها إلى لغاتِهم، ونسبوها إلى أنفسِهم. . لكنَّ البحثَ العلميَّ والتحقيقَ الدقيق، كَشَفَ عن هذا، وأعادَ إلى الفارابي فضلَه وأسبقيتَه.

لقد شهدَ أهلُ الغربِ بفضلِ الفارابي في أكثرَ من مناسبة، وعلى مدَى القرونِ التي تفصلُ بين زمنِه وزمنِنا. ومن هذا ما قاله المستشرق (دي فو) عن رأيِهِ في شخصيةِ الفارابي، قال: «إن الفارابي شخصيةٌ قويةٌ وغريبةٌ حقاً. وهو ـ عندي ـ أعظمُ جاذبيةً وأكثرُ طرافةً من ابنِ سينا، لأن روحَه كانت أوفرَ تدفّقاً وجيشاناً، ونفسَه أشدُّ تأجّجاً وحماسة. . لفكرِه وَثَباتٌ كوثَبَاتِ الفنّان، وله منطقٌ مُرهَفٌ بارعٌ متفاوت، ولأسلوبِه مَزيّةُ الإيجازِ والعمق».

ويقول (ماسينيون) الذي تأثّرَ أكثرَ من غيرِه بفلسفةِ الفارابي وقَدَرَها حقَّ قَدْرِها: «إن الفارابي أفهمُ فلاسفةِ الإسلام، وأذكرُهم

للعلومِ القديمة، وهو الفيلسوفُ فيها لا غير. وهو مدركٌ محقّق». وكما يقولُ (روجر بيكون): «إن مؤلفاتِ الفارابي قد مَهَّدت السبيلَ لظهورِ ابنِ سينا وابنِ رشد، وكانت نِبراساً لحكماءِ الشرقِ والغرب، وسِراجاً وهّاجاً يستضيئون بنورِه، ويسيرون على هُداه». بل إن (ميبرويج) يقول: «إن تسمية الفارابي بالمعلمِ الثاني ـ بعد أرسطو المعلمِ الأول ـ قد جعلَ الفيلسوفَين على قدمٍ واحدةٍ من المساواة».

الذين رُزقوا السعادة..

إذا كان هذا هو رأيُ أهلِ الغربِ في الفارابي، فقد كان لأهلِ الشرقِ من المؤرخين والعلماءِ آراءٌ فيه، ترفعُه إلى هذه المكانة، وربما إلى مكانةٍ أعلى وأرفع. من هذا ما قاله ابنُ صاعدٍ في كتابِ (طبقات الأُمم)، حيث يعترفُ بأن الفارابي قد تفوّقَ في علومِ المنطقِ على أهلِ الإسلام جميعاً، «فشرحَ غامضَها، وكشفَ سرَّها، وقَرَّبَ تناولَها، وجَمَعَ ما يحتاجُ إليه منها في كتبٍ صحيحةِ العبارة، لطيفةِ الإشارة، مُنبّهةٍ على ما أغفلَه الكِنديُّ وغيرُه من صناعةِ التحليل، وأَنحاءِ التعليم، ـ أنحاء علمِ إعرابِ كلامِ العربِ وقواعِده ـ وأوضحَ القولَ فيها عن موادِّ المنطق الخمس، وأفردَ وجوهَ الانتفاعِ بها، وعرَّفَ طُرقَ استعمالِهَا، وكيف تُعرفُ صورُ القياسِ في كلِّ مادةٍ منها، فجاءت كتبُه في ذلك الغايةَ الكافيةَ والنهايةَ الفاضلة».

وقال عنه ابنُ خِلّكان: «صاحبُ التصانيفِ في المنطقِ والموسيقى وغيرِهما من العلوم، وهو أكبرُ فلاسفةِ الإسلام، فلم يكن فيهم من بلغَ رتبتَه في فنونِه. والرئيسُ أبو عليّ ابنُ سينا بكتبِه

تَخرَّج، وبكلامِه انتفعَ في تصانيفِه». إلى أن يقول: «ولم يكن في ذلك الوقتِ أحدٌ مثلَه في فنِّه. وكان حسنَ العبارةِ في تآليفِه، لطيفَ الإشارة، وكان يستعملُ في تصانيفِه البَسْطَ والتّذييل».

ويقولُ ابنُ سَبعين عن الفارابي: «هذا الرجلُ أفهمُ فلاسفةِ الإسلام، وأذكرُهم للعلومِ القديمة، وهو فيلسوفٌ فيها لا غير، وماتَ وهو مُدركٌ محقّق...». أما الصَّفديّ فيقول: «الذين رُزقوا السعادةَ في أشياءَ لم يأتِ بعدَهم مَن نالَها، جماعةٌ كثيرةٌ من بينهم، أبو نصرِ الفارابي، في نقلِه كلامَ القُدماءِ ومعرفتِه وتفسيرِه...».

كما يقولُ الأستاذُ مصطفى عبد الرازق عن جهودِ الفارابي في إحصاءِ العلومِ وتصنيفِها: «ليس مجانباً للحقّ، قولُ مَن يَرى أن الفارابي هو أَولُ من وضعَ دائرةَ المعارف. ولسنا نعرفُ مِن قبلِ الفارابي من قصدَ إلى تدوينِ جملةِ المعارفِ الإنسانيةِ في زمنِه موطأةً مُجْمَلة، ويسهلُ تناولُها على المتأدِّبين».

ويتحدثُ الاستاذ العقادُ عن كتابِ الفارابي «آراءُ أهلِ المدينةِ الفاضلة»، فيقول: «ويمتازُ الفارابي من بين فلاسفةِ الإسلامِ بأنه عالجَ البحثَ في السياسةِ من الناحيةِ الفلسفيةِ الخالصة. فالتفكيرُ السياسيّ في نظامِ الدولة، وتصوُّرِ المَثَلِ الأعلى للحُكم، ووضعُ الموازينِ الخُلقيةِ والمقاييسِ وتحديدُ الغايةِ من الحاكمِ والمحكوم، ونقدُ المجتمعِ الذي يؤدّي إلى الشرورِ والمفاسد، كلُّ هذه من الوسائلِ التي انفردَ الفارابي بالبحثِ فيها، والتي تدلُّ على قوةِ الشخصيةِ واستقلالِ الرأي..». إلى أن يقول: «والمدينةُ الفاضلةُ اسمٌ أطلقَه الفارابي على الْمَثلِ الأعلى للحكم، ويريدُ به المدينةَ التي تحقّقُ لأعضائِها السعادةَ القُصوى في الدَّارَين».

أخلاقُ المفكّر:

إلى جانبِ هذا التفوقِ العلميِّ والعقليِّ، الذي شهدَ به أهلُ الغربِ والشرق، تحدّثَ المؤرّخون عن أخلاقِ الفارابي. فقالوا إنه كان ذكيَّ النفس، هادىءَ الطَبع، ساكناً، لا يعبأُ بشيءٍ من أمورِ الدنيا، من مأكلٍ أو مشربٍ أو ملبسٍ أو مَسْكَن.

كانت أغلبُ ملابِسه من ألبسةِ الأتراك، يقتصرُ على أبسطِ أنواعِ الغِذاء. كان أكثرَ أيامِه ينفردُ بنفسِه لا يجالسُ الناس، ولا يكونُ عادةً إلا حيثُ المياهُ الجارية، والحدائقُ المتشابكةُ الأشجار. هناك كان يؤلفُ كتبَه، ويزورُه تلاميذُه والذين يَسعَوْن إلى تلقّي العلمِ على يديه، فيسألونه فيما استعصَى عليهم. وليس أدلَّ على زُهدِه، من رفضِه عطايا سيفِ الدولةِ الحَمَداني، واكتفائِه بأربعةِ دراهمَ في اليوم، لا يطلبُ غيرهَا لضرورياتِ معيشتِه.

وإذا كان الفارابي قد آثر حياةَ الزهدِ والاعتزال، والبعدَ عن الناس، وعن السعيِ إلى المناصبِ والوظائف، فإنه لا ينصحُ الآخرين بهذا الموقفِ من الحياة، ولا يجعلُ من حياتِه نموذجاً يُقتدَى في هذا المجال. . والفارابي مُحقٌّ في هذا، فقد كان نَمَطاً خاصاً، ونموذجاً فريداً، لا يتكررُ في عقليتِه العلمية، وفي كفاحِه من أجلِ المعرفةِ الإنسانية، وفيما قدّمَه للبشريةِ من آثارٍ أقرَّ الجميعُ بفضلِها. وقد دعا الناسَ إلى أن يؤمنوا بحياةِ الكفاحِ والعمل، وعدمِ الانطواءِ والاعتكاف. وكان يَرى أن الإنسانَ يجبُ ألا يقفَ عند حدِّ العلمِ والتحصيل، وأن يكونَ العلمُ وسيلةً لإصلاحِ الفردِ والجماعة.

نهايةٌ جليلة:

هكذا مضَت حياةُ الفارابي، يسودُها الزهدُ والتقشفُ والانكبابُ على الدراسةِ والانتاج، حتى تُوفي في دمشقَ عام ٩٥٠ م (٣٣٩ هـ).

وكما اختلفَ المؤرّخون في تاريخِ ولادتِه في نسبِه، وفي تاريخِ سفرهِ إلى بغداد، اختلفوا أيضاً في وفاتِه. فذكرَ البعضُ روايةً غريبةً عن وفاتِه مَفادُها، أن أبا نصرِ الفارابي كان يرتحلُ من دمشقَ إلى عَسْقلان. فلقيته جماعةٌ من اللصوصِ يقالُ لها «الفتيان». قال لهم أبو نصر: خُذوا ما معي من الدوابِ والأسلحةِ والثياب، وخَلُّوا سبيلي، فأبوا ذلك، وهمُّوا بقتلِه، فلما صار أبو نصر مضطراً، ترجّلَ وحاربَ حتى قُتلَ هو ومَن معه، وأن أهلَ الشامَ بحثوا عن اللصوص، وصلبوهم على جذوع أشجارِ عندَ قبرِه.

ومن الواضحِ أن الذي أوردَ هذه القصةَ عن وفاةِ الفارابي، قد خلطَ بين وفاتِه ووفاةِ الشاعر المتنبي، الذي عاصرَ الفارابي في بلاطِ سيفِ الدولةِ الحمداني، والذي كانت نهايتُه قريبةً من هذا عندَ عودتِه من بلادِ فارسَ إلى العراق. كما أن التفاصيلَ التي تضمَّنتها هذه القصةُ لا تتفقُ مع عمرِ الفارابي في ذلك الوقت، ولا مع زُهدِه الذي تكلّمنا عنه.

ذكرَ معظمُ المؤرخين ان الفارابي توفّي في دمشق، ودُفن بها خارجَ البابِ الصغير، بعد أن عادَ من رحلتِه إلى مصر، وكان قد اعتزلَ الناس، وتصوَّف، وأن سيفَ الدولةِ لبسَ ملابسَ المتصوّفين وصلّى عليه، اعترافاً بمكانتِه.

مؤلفاتُ الفارابي:

كانت حياةُ «المعلم الثاني» الفكريةُ حياةً خصبة، وقد بَلَغت مؤلفاتُه من الكثرة، ما جعلَ بعضَ المستشرقين يخصصُ لحصرِها مجلداً ضخماً، ولكنّ أغلبَ هذه المؤلفاتِ قد ضاع، ولم يبقَ منها غيرُ أربعين مؤلفاً، يمكن أن نُوردَها وَفقاً للترتيبِ التالي:

المنطق:

٧ مؤلفات، من بينها «كتابُ التوطئةِ في المنطق» و«كتابُ شَرائطِ البُرهان» وهو يتضمنُ ما يحتاجُ إليه كلُّ دارسٍ لعلمِ المنطق.

الخَطابةُ والشعر:

٣ مؤلفات، من بينها «شرحُ كتابِ الخَطابةِ لأرسطو»، ورسالةٌ في «قوانين صناعة الشعر».

نظريةُ المعرفة:

٤ مؤلفات، من بينها «رسالةٌ في العقلِ والمعقول» وكتابُ «إحصاء العلوم» وكتابُ «مراتب العلوم».

ما بعدَ الطبيعةِ والفلسفةِ العامة:

١٢ مؤلفاً، من بينها «فصوصُ الحكم» وكتابُ «الجمع بين رَأْيَي الحكيمين أفلاطون الالهي وأرسطوطاليس»، و«عيون المسائل» و«تعليقات في الحكمة».

الفيزياءُ وعلمُ الطبيعة:

٥ مؤلفات، من بينها كتابٌ في «أصول علم الطبيعة» ومقالةٌ في «وجوب صناعة الكيمياء»، ورسالة في «ما يصح وما لا يصحّ من أحكامِ النجوم».

الموسيقى:

وصلَ إلى أيدينا مؤلَّفٌ واحدٌ هو «كتابُ الموسيقى الكبير».

الأخلاقُ والفلسفةُ السياسية:

٧ مؤلفات، من بينها كتاب «آراءُ أهل المدينة الفاضلة»، وكتابُ «السياسة المدنية» وكتابُ «تحصيل السعادة» وكتاب «تلخيص نواميس أفلاطون».

أسلوبُ الفارابي:

أسلوبُ الفارابي دقيقٌ مُركَّز، ليس فيه تكرارٌ أو تَرادف، وهو يعتني باللفظِ والعبارة، ويُعطي أغزرَ المعاني في جملٍ مختصرة. يمرُّ على الأمورِ التي يفترضُ أنها معروفةٌ دون أن يطيلَ في شرحِها، ولا تستوقفُه المعلوماتُ العادية. لكنّه عندما يتصدّى للحديثِ عن الأُسس، وجوهرِ المبادىء، يُوفِي الحديثَ حقَّه، بما

يكشفُ الغموضَ عن آرائِه وآراءِ الآخرين.

ويتميزُ الفارابي في أبحاثِه بالترتيبِ ووضوحِ الأفكارِ، وخيرُ شاهدٍ على ذلك، رسالتُه المسمْاة «ما ينبغي أن يُقدَّمُ قبلَ تعلُّمِ الفلسفة»، فهي أشبهُ ما يكونُ بفِهْرِسٍ مقسم مبوَّبٍ لعرضِ المدارسِ الفلسفيةِ اليونانية، مبيناً مصدرَ تسميتِها، وأسماءَ روادِ هذه المدارسِ الفلسفية.

أهمُّ آراءِ الفارابي

في الفلسفة:

كانت الفلسفةُ بمعناها الواسعِ أوضحَ ناحيةٍ من نواحِي نبوغِ الفارابي، فمعظمُ بحوثِه كانت متجهةً إلى تجديدِ بحوثِها. وهو يُعتبرُ المؤسسَ الحقيقيِّ للدراساتِ الفلسفيةِ في العالمِ العربي.

وقد حاولَ الفارابي أن يوفِّقَ بين الآراءِ الفلسفيةِ لأفلاطون وأرسطو. ثم حاولَ بعدَ ذلك أن يوفّقَ بين الفلسفةِ اليونانية والإسلام. ولعلّ دافعَه إلى ذلك، أنه كان فيلسوفاً ومسلماً في آنٍ واحد.. أي أنه كان مُقتنعاً بجلالِ الفلسفةِ من جهةٍ، وكمالِ الإسلامِ من جهة أخرى. فالفلسفةُ والدين، في رأيه، أمران متفقان، لأنَّ كلاً منهما حق، والحقُّ لا يتناقضُ مع الحق.

والفارابي يَرى أن الفلسفةَ ليست عِلماً جزئياً، كعلومِ الرياضيات والطبيعةِ والطبِّ وما شابَهها، وإنما هي علمٌ «كلي» يرسمُ لنا صورةً شاملةً للكونِ بكلِّ ما فيه. ويقولُ إن «الفيلسوف الكامل» هو الذي يحصلُ على العلمِ الكلي، ويَكُونُ له في نفسِ الوقتِ قدرةٌ على استعمالِه، أو كما يقولُ هو نفسه: «الذي يَحصِّلُ الفضائلَ النظريةَ أولاً، ثم الفضائلَ العمليةَ ببصيرةٍ يقينية».

في المنطق:

يقول ابنُ خَلدون في مقدمتِه: «إن أرسطو سُمّي بالمعلم الأولِ لأنه هذَّبَ وجمَعَ ما تفرقَ من مباحثِ المنطقِ ومسائِله، فأقامَ بناءً متماسكاً، وجعلَه من أولِ العلومِ الحكيمةِ وفاتحتَها، وسُمّيَ الفارابي بالمعلِّمِ الثاني، لما قامَ به من تأليفِ كتابٍ يجمعُ ويهذّبُ ما تُرجمَ قبلَه من مؤلفاتِ أرسطو خاصّة. فمنذ أيامِ الفارابي أُحصيتْ كتبُ أرسطو، ورُتّبت على صورةٍ لم تتغير في مجملِها، وصارت تفسَّرُ وتشرحُ على طريقةِ الفارابي».

كما يقول ابنُ صاعدٍ إنَّ الفارابي قد تفوَّقَ في علمِ المنطقِ على جميعِ أهلِ الإسلام. ويرى الكثيرون أن اهتمامَ الفارابي بالمنطقِ هذا الاهتمامَ العظيم، قد أثّرَ في التفكيرِ عند العرب، وتقدّمَ به خُطوات، باعتبارِ المنطقِ الأداةَ التي يمكنُ بواسطتِها الوصولُ إلى التفكيرِ الصحيح. ويقول الفارابي في تعريفِه للمنطق: «المنطقُ هو العلمُ الذي نَعْلَمُ به الطرقَ التي تُوصِلُنا إلى تصوّرِ الأشياء، وإلى تصديقِ تصوُّرِها على حقيقتِها».

في الأخلاقِ والسياسة:

ومن أهمِّ كتبِ الفارابي في الأخلاقِ والسياسة كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة». ومدينةُ الفارابي الفاضلةُ ليست صورةً مصغرةً لكتاباتِ أفلاطون في تصورِه الذي يُعْرفُ باسم «جمهورية أفلاطون». لقد استعانَ الفارابي فعلاً بفلسفةِ اليونان، وبجمهوريةِ أفلاطون، لكنّه استعانَ أيضاً بالإسلامِ وأحكامِه، وأضافَ إلى هذا كلِّه تجارِبَه وخبراتِه.

وفي مدينتِه الفاضلة، يصفُ الفارابي الأمَّة، باعتبارِها جسماً واحداً لا يستقيمُ أمرُه إلا بالتضامنِ والتعاونِ، وتوزيعِ الأعمالِ وتنسيقِها على أساسِ الاستعداداتِ والمواهبِ والقابليات. وأن الدولةَ لا تتقدمُ ولا تسيرُ نحوَ السعادةِ قُدُماً، إذا لم يكن على رأسِها الحكماءُ والفلاسفةُ المعروفون بكمالِ العَقل، وقوةِ الإدراك، وقوةِ الخَيال، وصفات أخرى سردَها الفارابي على النحوِ التالي: «أن يكونَ الرئيسُ تامَّ الأعضاء، سليمَ البدن، جيدَ الفَهمِ والتصورِ لكلِّ ما يقالُ، جيدَ الحفظِ لما يفهمُه، ولِمَا يراه ويسمعُه، ولما يُدركُه.. محباً للتعليمِ والاستفادة... لا يؤلمُه التعليم، ولا يؤذِيه الكَدُّ الذي ينالُ منه.. محبّاً للصدقِ وأهلِه، مبغضاً للكذبِ وذويه.. محتقِراً للمالِ ولسائرِ أعراضِ الدنيا، محباً للعدلِ وأهلِه، ومبغضاً للجَوْرِ والظّلم».

في العلوم:

يقال عن الفارابي، إنه أولُ مَن قامَ بمحاولةٍ لوضعِ دائرةِ معارفَ شاملة، وقد ظهرَ هذا في تصنيفِه للعلومِ وإحصائِها. وهو يقسّمُ العلومَ في كتابِه «إحصاء العلوم» إلى ستةِ أقسام: علومِ اللغة، علومِ المنطقِ بما فيها الخَطابةُ والجَدَل، الرّياضيات، العلومِ الطبيعية، العلومِ المدنية، علمِ الكلامِ، علمِ ما وراء الطبيعة.

وكتاباتُ الفارابي في هذا المجال، تؤكدُ أنه إلى جانبِ ما ابتكرَه وأضافَه، لم يُهملْ دراسةَ أيّ فرعٍ آخرَ من فروعِ المعرفةِ الإنسانيةِ في عصرِه، ولم يترَكْ تَخصصاً من تخصصاتِ العِلمِ إلا وألمَّ به، وفهمَ أهمَّ ما فيه، وغايةَ ما وصلَ المفكّرون إليه من

أمره. وفي هذا يقولُ ابنُ صاعد في كتابِه (طبقات الأُمم)، عن كتابِ إحصاءِ العلوم: «كتابٌ شريفٌ في إحصاءِ العلومِ والتعريفِ بأغراضِها، لم يسبقْه إليه، ولا ذهبَ أحدٌ مذهبَه فيه، ولا يَستغنِي طلابُ العلومِ كلِّها عن الاهتداءِ به، وتقديمِ النظرِ فيه».

ومن استعراضِ مؤلفاتِ الفارابي، نجدُ أنه طَرَقَ بقلمِه الكثيرَ من الموضوعاتِ العلميةِ المتشعّبة، التي قد يصعُبُ على العقلِ العادِي أن يستوعبَها جميعاً، فله كتبٌ في «أعضاء الحيوان»، و«في أنَّ حركةَ الفلكِ سَرْمدية» و«في الحيّز والمقدار» و«شرح المستغلق من مصادرة المقالة الأُولى والخامسة من اقليدس» و«المدخل إلى الهندسةِ الوهمية» و«مراتب العلوم» و«النّجوم» و«وجوبِ صناعةِ الكيمياء والردّ على مُبطليها» إلى آخرِ كتبِه ورسائِله في هذه الموضوعاتِ العلمية.

في الموسيقى:

بالإضافةِ إلى ما يُنسبُ إلى الفارابي من صناعةِ آلةِ (القانون) الموسيقية وابتكارِها، وغيرِها من الآلاتِ الموسيقيةِ الغريبة، وما يقالُ من إجادتِه العزفَ على الآلات، فله إلى جانبِ هذا، العديدُ من الأفكارِ القيّمةِ في علمِ الموسيقى، تتضمَّنُها كتبُه ورسائلُه في هذا الموضوع.

من بينِ هذه الكتبِ التي لم تصلْ أغلبُ نصوصِها إلينا، «كتابُ الموسيقى الكبير»، و«كلامٌ في الموسيقى» و«كتابٌ في إحصاءِ الإيقاع». ومن بين هذه الكتب، وصلَ إلينا كتابُ «الموسيقى الكبير»، وكان له دورٌ كبيرٌ في تطويرِ علمِ الموسيقى في

القرونِ الوسطى. فقد تناولَ فيه الفارابي بشكلٍ واسع، قَضايا علمِ الجمالِ الموسيقي، وأصلَ الموسيقى، ونظريةَ الموسيقى، والترتيبَ الأوركسترالي الموسيقي.

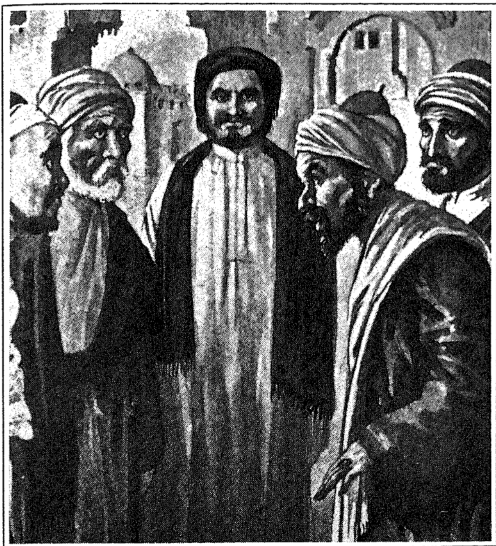
الكِنْدي

فيلسوف العرب، وسَليل الملوك

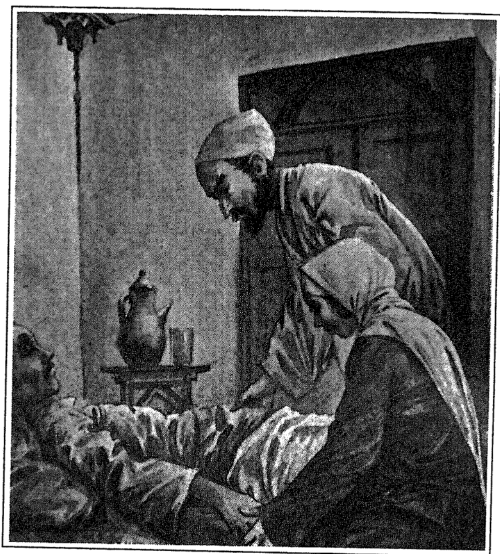


هُو

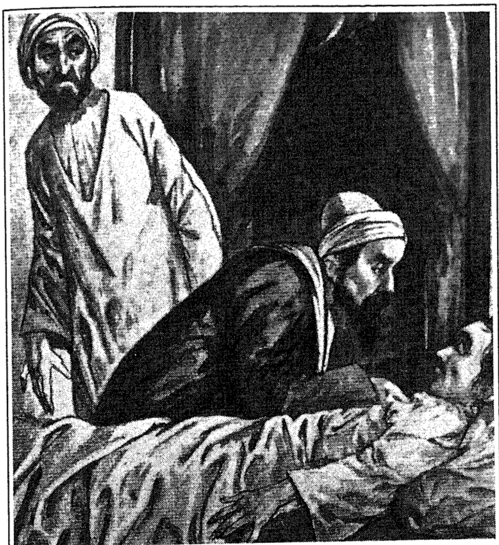
يعقوب
ابن
اسحاق
الكندي



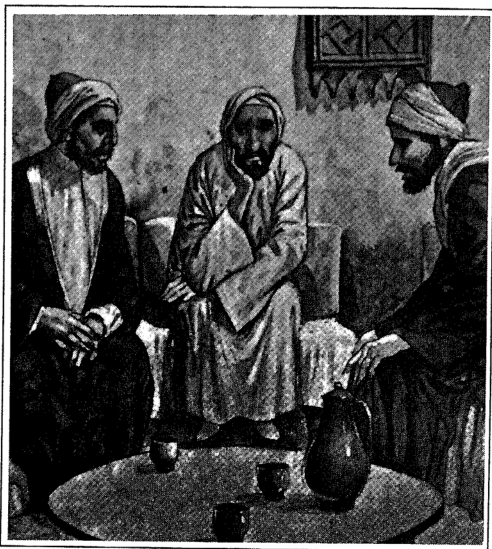
اعتادَ أحدُ كبارِ التُّجارِ من جيران الكِنْديّ أن يَطعنَ فيه، ويَشُنَّ عليهِ الحَمَلاتِ أمامَ باقي الجيران. وكان الكِنْدِيُّ يتحملُ مُشاكسةَ التاجرِ في صَبْر، ويتجاهلُ كلماتِهِ الجارحةَ فِي ترفّع، فيزيدُ هذا من ثورةِ التاجرِ عليه.



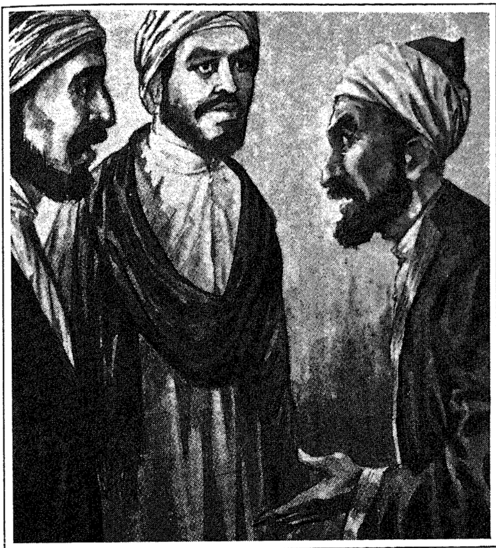
وذاتَ يوم، سقطَ ابنُ التاجرِ مريضاً، لا يتحرّك أو يتكلّم. وكان ذلك الابنُ هو الذي يتولّى معاملاتِ الأبِ وحساباتِه، فلم يَدْرِ ما عنده للناس وما له عندَ الناس. حزنَ التاجرُ مَرتين، مرةً على ابنهِ المريض، ومرةً أخرى على تجارتِه التي اختلطت أمورُها.



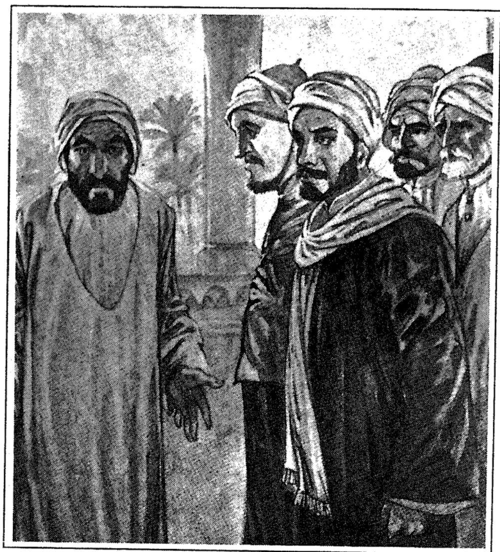
لجأَ التاجرُ الكبير إلى العديدِ من الأطبّاء، فأعرضَ أغلبُهم ليأسِهم من حالةِ الابن. أما الذين قَبِلوا معالجةَ المريض، فقد كانوا يدخلون ويخرجون، ويَصِفُون الدواءَ إثرَ الدواء، دون أي تحسّنٍ في حالةِ المريض.



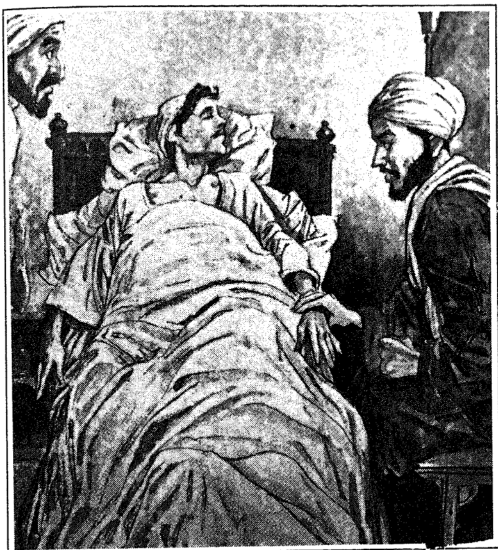
تضاعفت حَسْرة التاجر، وتزايدَ حزنُه، فنصحَه الجيرانُ قائلين: «لماذا تذهبُ بعيداً للبحثِ عن الأطبّاء، وإلى جوارِك فيلسوفُ زمانِه، وأعلمُ الناسِ بعلاجِ هذه العلّة». سألَهم عمّن يَقْصِدون. فأجابُوا «الكِنديّ».



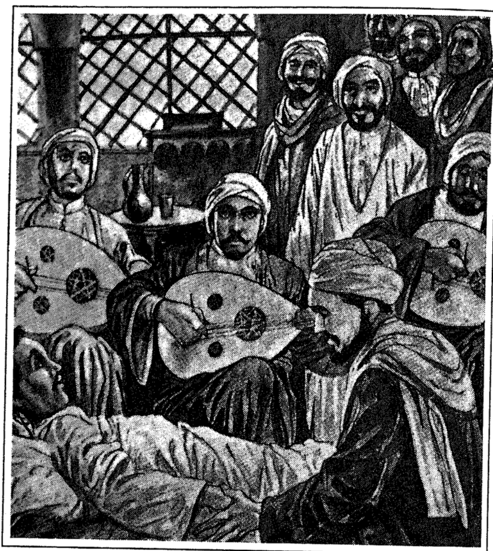
تـردَّدَ التـاجـر، وهـو يـتـذكـرُ مـا فـعـلَـه بالكنديّ، من قَبل. ثم توسَّلَ إلى الجيران، أن يتوسَّطوا لدَى الكِنديّ حتى يقبلَ القيامَ بعلاجِ ابنِه، متناسياً ما قد وجّهَه إليه من إهاناتٍ وشتائم.



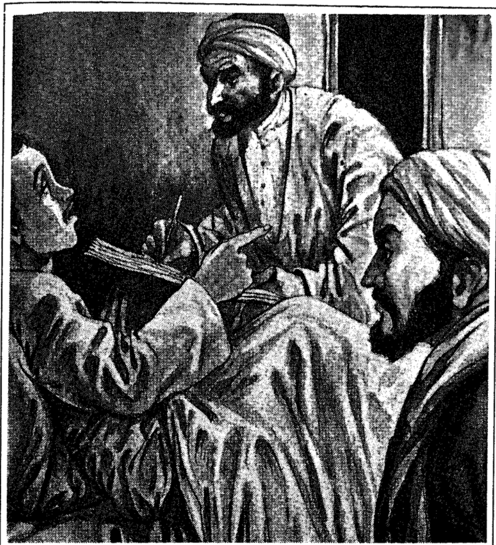
يستجيبُ الكِنديُّ للواجبِ الإنساني، فيذهبُ مع الجيرانِ إلى قَصْرِ التاجرِ الكبير. دخلَ على الشابِ المريض، وأخذَ يفحصُه فحصاً دقيقاً، ويوجّهُ العديدَ من الأسئلةِ إلى أهلِه، مستقصياً أسبابَ هذا المرض.



بعد أن انتهَى من الفَحص، طلبَ الكِنديُّ من بعضِ اصدقائِه أن يذهبَ لاستدعاءِ أربعةٍ من تلاميذِه في علمِ الموسيقى. اختارَهم الكنديُّ من الذين يُجيدون العزفَ على العود، والتحكمَ فِي نَغماتِه.



حضرَ التلاميذُ يحملُ كلٌّ منهم عودَه، فطلبَ منهم الكِنديُّ أن يَعزِفُوا أنغاماً مُعَيَّنة، شَرَحَ لهم طريقةَ عزفِهَا. بدأَ العزف، وأمسكَ الكنديُّ بيدِ مريضِه يَجُسُّ نبضَه.. وما أن مضى بعضُ الوقت، حتى تحركَ الشَّابُّ وجلسَ وتكلم.



كاد التاجرُ أن يسقُطَ مُغْمىً عليه من فرطِ الفرحَة، لكن الكنديَّ طلبَ منه الإسراعَ بتسجيلِ المعلوماتِ والحساباتِ التي يريدُ أن يعرفَها من الابن. واستطاع التاجرُ أن يحصلَ من ابنِه على بيانٍ كاملٍ بكلِّ ما لم يكن يعرفُه.



بعدَ قليلٍ عادَ الشابُّ إلى إغمائِه، فألحَّ الأبُ على الكنديِّ في أن يكررَ العلاجَ. قال له الكندي إن حالةَ الابن ميؤوسٌ منها، وإنه اعتمدَ على الموسيقى، لإفاقةِ الابنِ فيما بقيَ له من رمقِ الحياة.

فيلسوفُ العرب، وسليلُ الملوك

هو يعقوبُ بنُ إسحاقَ الكنديّ، فيلسوفُ العربِ وأحدُ ابناءِ ملوكِها، هكذا بدأ المؤرّخون حديثَهم عن العالِمِ الكبير.

حظِيَ الكنديُّ بلقبِ «فيلسوف العرب» لأنه أولُ عربيٍّ مسلم مهَّدَ لنشرِ الفلسفةِ بين العربِ في ظلِّ الإسلام. فإلى جهودِ الكنديِّ في النقلِ والترجمة، يعودُ الفضلُ في توافرِ المعارفِ الفلسفيةِ اليونانيةِ بلغةٍ عربيةٍ سَهلة، تشجعُ الدارسين العربَ على أن يقرؤوها. كما أنه سعى إلى تبسيطِ الموضوعاتِ الفلسفيةِ المترجَمَةِ وتلخيصِها، حتى يَسهُلَ على الدارسِ استيعابُها. فكان الكنديُّ بذلك هو الذي اختارَ للفلسفةِ الإسلاميةِ وجهتَهَا ومسارَها، وزادها وُضوحاً تلاميذُه من بعدِه.

والكنديُّ هو أولُ من حظيَ بلقب «فيلسوف العرب»، وذلك لتعددِ معارفِه وقدراتِه، وتمكُّنِه من مختلِفِ العلوم. فهو بالإضافةِ إلى تمكنِه من العلومِ الفلسفيةِ بمعناها الجديد، كان عارفاً بعلومِ المنطقِ والرياضيات والطبِّ والفلكِ والإلهيات، ثم الآدابِ من نَحْوٍ وشعرٍ. وكانت العربُ تطلقُ لَقَبَ «فيلسوف» على من يُحيطُ بكلِّ

العلومِ والآدابِ، ولا يتخصصُ في أحدِها فقط.

أما صفةُ (سليل الملوك)، فقد حظِيَ بها الكنديُّ لأنه من سلالةِ قَحطانَ التي كان لها حكمُ اليمنِ في الجاهلية، ومن أجدادِه سبأُ بنُ يعْرِبَ بنِ قَحطان، أول ملوكِ العرب. ويمتدُّ نسبُ الكنديِّ في الجاهليةِ والإسلام، وجدُّه الأشعثُ بنُ قيس، عاشَ في الجاهلية، وسافرَ إلى الرسولِ صلى الله عليه وسلَّم مع وفدِ كِنْدة، وأسلمَ على يديه.

ويُحكى أن الأشعثَ هذا، قدِمَ على الرسولِ في موكبٍ من ثمانين فارساً. وعندما دَخلوا على الرسولِ وجدَهم يَرْتدون الملابسَ الغاليةَ المطرَّزَةَ بالحرير، ويزيّنون عيونَهم بالكُحل. فقال الرسول: ألَمْ تُسْلموا؟. قال الأشعث: بلى. فقال الرسول: فما بالُ هذا الحرير في أعناقِكم؟. فما كان منهم إلاَّ أن شَقُّوا ثيابَ الحريرِ وألقَوْا بها أرضاً.

ورغمَ أن الأشعثَ وقومَه كانوا من بين من ارتدُّوا بعد وفاةِ النبيّ عليه السلام، إلا أنه سُرعانَ ما عادَ إلى حظيرةِ الإسلام، وشاركَ في الفُتوحِ الإسلامية، وأظهرَ شَجاعةً نادرة. شهدَ معركةَ اليرموك بالشام، ومعركةَ القادسِيةِ بالعراق، وكان ضمنَ الوفدِ الذي أرسلَه سعدُ بنُ أبي وقَّاص إلى يَزْدَجَرد ملكِ الفرس يَدعوه إلى الإسلام. وشاركَ الأشعثُ وهوالجدُّ الخامسُ لفيلسوفِنا الكندي، في حربِ المدائنِ وجلّولَ ونهاوند، وأخيراً أقامَ في الكوفة، وبنى لنفسِه داراً بها. وبقيت أسرةُ الكِندِيّ بها، حتى هاجرَ فيلسوفُنا منها إلى بغداد.

ورغمَ أن الأشعثَ قد تنازَل عن مُلكِه باليمن، وانتقلَ ليعيشَ في الكوفةِ حياةَ المسلمِ من عبادِ الله، إلا أن ابنَه محمدَ بنَ الأشعث، مالت نفسُه بعد وفاةِ والدِه إلى الملكِ بما يحوطُه من عزٍّ وسلطان. لم يكن تحقيقُ ذلك الحلمِ ممكناً في عهدِ معاويةَ بنِ أبي سفيان، الذي قبضَ على الدولةِ بيدٍ من حديد. فما أن ماتَ معاوية، وانتقلت السلطةُ إلى ابنِه يزيد، حتى تجددت الأطماعُ عند محمدِ بنِ الأشعث، وأمكنه بالفعلِ أن يحظَى بإمارةِ المَوْصِلِ عن طريقِ انضمامِهِ إلى ابن الزّبير. ومع اضطرابِ الأوضاعِ السياسية، يدخل محمدُ بنِ الأشعثِ في مغامراتٍ تنتهي بقتلِه وهدمِ دارِه.

أما الجدُّ الثالثُ لفيلسوفِنا، عبدُ الرحمنِ بنُ محمد، فقد سارَ على نفسِ سبيلِ أبيه، وغايةُ ما وصلَ إليه تنصيبُه حاكماً على سِجْستان في بلادِ فارس، ثم قائداً على جيش البصرةِ والكُوفة. لكنَّه خرجَ بعد ذلك على الحَجّاج، واستطاعَ في عام ٨٢ هجرية أن يدخلَ البصرةَ بجيشِه وأن يخلعَ عبدَ الملكِ بنَ مروان، واستمرت الحربُ بينهما على مدى ثلاثةِ أعوام. ويقال إن عبدَ الرحمنِ ألقى بنفسِه من سطح قصرِه فمات متحسّراً على ضَياعِ أملِ الوصولِ إلى الملكِ في عهدِ بني أمية.

عندَ انتهاءِ عصرِ الدولةِ الأموية، وبعد أن وصلَ العباسيون إلى الحكم، عادَ إلى بَني الأشعث، ما كان لهم من نفوذٍ واحترام. فإذا كانوا قد تنازلوا عن أحلام الملكِ والسلطان، فقد اكْتَفَوْا بتولّي بعضِ المناصبِ المهمّة، كالولايةِ على الأقاليم، ومناصبِ القضاء، أو الإمارة، أو الشّرطة.

فتولّى إسحاق، والدُ فيلسوفِنا ولايةَ الكُوفة عام ٧٧٥ م (١٥٩ هـ) في عهدِ الخليفةِ المهدي، وتولّى بعد ذلك الشرطةَ في عهدِ المهديِّ، والهادي، ثم في عهدِ هارونَ الرشيد.

وقد جَرَت العادةُ أن يسكنَ والي الكوفةِ في قصرِ الامارة، الذي يقعُ خلفَ المسجدِ الجامعِ الكبير، وفي هذا القصرِ ولدَ فيلسوفُنا يعقوبُ الكنديّ.

ولادتُه ودراستُه

ولدَ فيلسوفُ العربِ يعقوبُ الكندي بالكوفةِ في عام ٨٠١ م (١٨٥ هـ)، في أواخرِ أيامِ أبيه، فلم يستمتعْ طويلاً بالحياةِ في قصرِ والي الكوفة، بما فيها من عزٍّ ونعيم ورخاءٍ وأُبّهة، فما أن توفّي والدُه حتى خرجت أُمُّه بأُسرتِها من قصرِ الإمارة، وعادت إلى دارِها بالكوفة، حيث عاشَ يعقوبُ فترةَ صباه.

ورغمَ أنَّ الكنديَّ نشأ يتيماً بعد وفاةِ أبيه، وبعد هجرةِ بني الأشعثِ من الكوفةِ إلى مختلفِ أنحاءِ البلاد، بحيث لم يبقَ للصبيِّ إلاّ أُمُّه، إلا أنه قد رأَى آثارَ فَخَامَةِ الإمارةِ وهو صبيّ، فانطبعت في ذاكرتِه. كما بقيت في خيالِه ذكرى ما سمعَه عن حَسَبِه ونَسَبِه، عن أجدادِه الملوك، وأبنائِهم الذين طَمِعوا في الملك، وحتى البيتُ الذي عاشَ فيه بالكوفةِ مع أمه بعد موتِ أبيه، كان من أفخمِ دُورِها، يليقُ بأبيه الذي تولّى الإمارة، ويذكّرُ الصبيَّ بتاريخِ أجدادِه.

تعلّم الكنديُّ كما يتعلمُ أبناءُ المسلمين في ذلك الحين،

القراءةَ والكتابةَ وبعضَ النحوِ والعربية، حفظَ القرآنَ وبعضَ الحديثِ الشريفِ ومباديءَ الفِقه، كما حفظَ الكثيرَ من الأشعار، التي يَسَّرت له معرفةَ أسرارِ البلاغةِ وأصولِ الفَصاحة.

وكانت الدراسةُ في ذلك الزمنِ حُرة، لا تُرغِمُ الدارسَ على استيعابِ علومٍ بعينِها قد لا يميلُ إليها، أو يجدُ أنها لا تتفقُ مع استعدادِه، وموهبتِه. فَمَن كان يهوَى العلومَ الشرعيةَ يتّجه إليها، أما الذي يعشقُ الحديثَ الشريفَ فقد كان يبحثُ عن أقطابِ هذا العلمِ، يلقاهم ويتلقَّى على أيديهم دروسَه، وهكذا بالنسبةِ لمختلِفِ فروعِ المعرفة، في الطبِّ أو الرياضياتِ أو الفلكِ أو التصوف.

في الكوفة، اندفعَ الكنديُّ إلى تحصيلِ العلومِ الدينيةِ والأدبية، وساعدَ على ذلك وجودُ العديدِ من كبارِ الأساتذةِ في هذه العلومِ يُقِيمُون بالكوفة. وكان علمُ الكلام، هو العلمُ الرائجُ في ذلك العصرِ الذي ظهرَ فيه المعتزلة، فكثُرت المقالات، وتعدَّدت الفِرَق، وتباينَت الأفكار. وقد شجّعَ الخلفاءُ في مجالسِهم حريةَ الرأي، وفَتَحوا أبوابَ الاجتهاد، وفي هذا يقالُ إن الخليفةَ المأمونَ كان يجلسُ للمناظرةِ في الفقهِ يومَ الثلاثاءِ من كلِّ أسبوع. فإذا حضرَ الفُقهاء، أُدخلوا حجرةً مفروشةً وقيل لهم: انزِعوا أخفافَكم ونِعَالَكم. وكان المأمون يناقشُهم ويناظرُهم طوالَ اليومِ وحتى غروبِ الشمس. فإذا كان الكنديُّ قد دَرَسَ علمَ الكلام، فإنما كان يفعلُ ذلك مقلّداً ملوكَ عصرِه، حتى يرتفعَ إلى مستوى مجالسِهم، ويسموَ إلى مقامِهم، ويسايرَ تيارَ العصرِ الذي كان يعيشُ فيه.

إلا أن الكندي ما لبثَ أن أحسَّ أن علمَ الكلامِ لا يُشبعُ نَهَمَه

إلى المعرفة، ففكّرَ أن يتّجهَ إلى الفلسفةِ وعلومِها. وكانت مواهبُ الكنديِّ واستعداداتُه تقودُه إلى العلومِ الرياضية. وهكذا اتخذَ الكنديُّ قرارَه بالسفرِ الى بغداد عاصمةِ الخلافة، وملتقى العلماءِ والفلاسفة، ليدرسَ هذه العلومَ على أيدي كبارِ أساتذتِها.

السفرُ إلى بغداد

يصلُ الكنديُّ إلى بغدادَ وهو بعدُ في سنِّ الشباب، تجتذبُه ناسُها وحضارتها ومجالس علمائها. وفي بغدادَ يبدأُ الكنديُّ في دراسةِ الفلسفة، وما يتصلُ بها من علومٍ طبيعيةٍ ورياضية.

لم يكن أمامَ طالبِ الفلسفةِ في ذلك العصرِ إلاَّ أن يعتمدَ على الترجماتِ التي بدأت تظهرُ لأَهمِّ المراجعِ الأجنبية. وهذا هو ما فعلَه الكندي. أخذ يتابعُ أجزاءَ هذه الكتب، ويشاركُ في نقلِها، ويكلفُ البعضَ بترجمةِ جانبٍ منها، ثم يلخّصُها ويعملُ على تفسيرِها. فاستطاعَ بهذا أن يدرسَ كُتبَ أرسطو في المنطقِ والطبيعةِ والأخلاقِ وما بعدَ الطبيعةِ والسياسة.

وفي مجالِ العلومِ الطبيةِ دَرسَ كتبَ أبقراطَ وجالينوس. ومالَ الكنديُّ إلى آراءِ مدرسةِ أبقراطَ التي تقومُ على العلاجِ الطبيعي. واستفادَ من مبدإِ الاعتمادِ على التجربةِ الذي سارَ عليه جالينوس.

أما في العلومِ الرياضيةِ التي نبغَ فيها الكنديُّ ووضعَ فيها الكثيرَ من الكتبِ والرسائل، فقد بدأَ بدراسةِ هندسةِ اقليدس، ثم عِلمِ الفلكِ من كتابِ المَجِسْطيّ لبطليموس. فأصبحَ على معرفةٍ

وثيقةٍ بالعلومِ اليونانيةِ وبخاصةٍ الرياضيات.

اعتمدَ الكنديُّ في دراستِهِ على لُغتين، اليونانيةِ والسريانية. وكانت العلومُ في ذلك الوقتِ لا تزالُ في يدِ قلةٍ من السّريان، وهم طائفةٌ مسيحيةٌ انشقَّت عن كنيسةِ انطاكية وعاشت في سوريا والعراق. كان الكنديُّ من أوائلِ العربِ المسلمين الذي اعْتَنَوا بعلومِ اليونانِ والسريان، ولم يكن ذلك سهلاً. فقد كانت علومُ الطبِّ والهندسةِ والحسابِ والفلسفةِ احتكاراً في أيدي السّريان والفُرس. وقد تجمَّعت لديهم معارفُ اليونانِ وفلسفتُهم. انتقلت من أثينا إلى الاسكندرية، ثم من الاسكندرية إلى مُدنِ الشام. ومنذ أيامِ الخليفةِ المنصورِ الذي انشأ مدينةَ بغداد، بدأت حركةُ نقلِ المراجعِ الطبيةِ إلى اللغةِ العربية، غيرَ أنَّ العلاجَ بقيَ في أيدي الأطباءِ السِّريان الذين وَثِقَ فيهم المسلمون. ولا شكَّ في أن هؤلاءِ الأطباءَ كانوا يقاومون كلَّ مَن يسعى إلى تحصيلِ هذه العلوم، وإلى انتزاعِ الحِرْفةِ التي يفتخرون بها، ويكْسِبون بها القوةَ والمكانةَ والمالَ الوفيرَ والقُربَ من السلطان.

لكنَّ الكنديَّ استطاعَ برغمِ هذه العقباتِ أن يدرسَ الطبّ، وأن يتفوقَ فيه، وأن يبتكرَ أساليبَ جديدةً للعلاج.

والكنديُّ فيما أخذَ من علومِ اليونانِ والسّريان أثناءَ دراستِه، لم يكن بالمترجمِ الحَرْفيّ، الذي ينقلُ النصَّ كما هو من أصلِه الأجنبي، لكنّه يقتبسُ ويُعدِّلُ ويُضيف، ويعيدُ الصياغَةَ بشكلٍ جديد، بعد أن يتأملَ النصَّ ويهضمَه. إلى جانبِ هذا كلِّه كان يلائمُ بين الأفكارِ التي يقرأُها، وبين مقتضياتِ العصرِ ومطالبِ

الإسلام، وطريقتهِ الخاصةِ في التفكير. وهي الطريقةُ التي عُرفت بين العلماءِ فيما بعد بالتلخيص. وهو في هذا أقربُ إلى معنَى الاقتباسِ المعاصر، كان يأخذُ المادةَ العلميةَ من أصلِها، ويُحوِّرُها بحيث تناسبُ الأُذنَ الشرقية، ومنطقَ التفكيرِ الشرقي، ومقتضى الحياةِ الشرقية.

وفي بغداد، لم يكن الكنديُّ بعيداً عن الأدب. فقد استطاعَ بدراستِهِ الأدبيةِ أن يصبحَ صاحبَ أسلوبٍ عربي جميل، وذوقٍ ناضجٍ في النقد، بالإضافةِ إلى أنه كان يَنظمُ الشعر. ومما يكشفُ عن ذَوقِه الأدبي، تلك القصةُ المعروفةُ له مع الشاعرِ أبي تمّام. فيحكى أن الكنديَّ كان حاضراً عند أحمدَ بنِ المعتصم، فدخلَ أبو تمام، وأنشدَ قصيدتَه السينيةَ إلى أن قال فيها:

إقدامُ عمروٍ في سَماحةِ حاتم
في حلمِ أحنفَ في ذَكاءِ إياس

قال له الكندي: ما صنعت شيئاً. سأل أبو تمام: كيف؟. أجابَ الكندي: ما زدت على أن شَبَّهت ابنَ أميرِ المؤمنين بصعاليك العرب، فضلاً عن أن شعراء دهرنا تجاوزوا بالممدوح من كان قبله. ألا ترى إلى قول العكوك في أبي دُلف:

رجل أبرَّ على شجاعةِ عامرٍ
بأساً وغَبَّر في مُحيَّا حاتم

فأطرق أبو تمام، ثم أنشد مرتجلاً:

لا تُنكروا ضَرْبي له من دونِه
مثلاً شروداً في الندَى والباس

فـــالـــلـــهُ قـــد ضـــربَ الأقـــلَّ لـــنـــورِه

مـــثـــلاً مـــن الـــمِـــشْـــكـــاةِ والـــنّـــبـــراس

ومع هذا، فإن الأدبَ لم يكن هو الميدانُ الذي ظهرت فيه مواهبُ الكنديّ وآثارُ عبقريتِه. وكان الأدبُ ضمنَ العديدِ من العلومِ التي زَوَّدَ بها الكنديُّ عقلَه، حتى يكون جديراً بسلالةِ الملوكِ التي أتى منها، ولائقاً لمحضرِ الملوكِ والخلفاءِ الذين قرّبوه إلى مجلسِهم.

في بِلاطِ الخلفاء

ذاعَ صيتُ الكنديّ في بغداد، وعَرَفَ الجميعُ تفوقَه في سائر العلوم، كما اشتُهرَ بين طالبي العلمِ والمعرفةِ بالمكتبةِ الضخمة التي كان يمتلكُها، والتي أطلقَ عليها «الكِنديّة»، والتي كانت تحتلُّ جانباً ضخماً من بيتِه الكبيرِ في أفخمِ أحياءِ بغداد.

وصلَ الكنديُّ إلى مكانةٍ ملحوظةٍ لدى الخليفةِ المعتصم بالله، فأوكلَ إليه تعليمَ ابنِه أحمدَ وتثقيفَه. وأغلبُ مؤلفاتِ الكنديِّ كانت على صورةِ رسائلَ يجيبُ فيها عن بعضِ الأمور، التي طلبَ فيها أحمدُ بنُ المعتصمِ استفساراً في نواحِي العلمِ والأدب. وإذا كانت الظروفُ لم تسمح للكنديِّ بتولي منصبٍ من المناصبِ الكبرى، كالولايةِ أو الإمارةِ شأنَ أجدادِه، فقد كان يعيشُ في كنفِ الخلفاء، وكان يتمتعُ بعطفِهم عليه، وبمِنَحِهم الجزيلة.

لقد عاصرَ الكنديُّ عدداً كبيراً من الخلفاءِ العباسيين، ولدَ في عهدِ هارونَ الرشيد، ونبغَ في عصرِ المأمون، وذاعَ صيتُه في خلافةِ المعتصم، ومرت به بعضُ المحنِ في أثناءِ حكمِ المتوكّل، ويبدو

أنه آثرَ الابتعادَ عن جوِّ المناصبِ السياسيةِ لِما فيه من تقلباتٍ ومغامرات، فانعزلَ بنفسهِ عن محيطِ الخلفاءِ الذين تعاقبوا على الحكمِ حتى زمانِ المستعينِ باللهِ الذي قُتلَ في أعقابِ فتنةٍ مرّت بالبلاد.

وفي جميعِ الأحوال، كان الكنديُّ جديراً بمعاشرةِ الخلفاء، فهو من أبناءِ الملوك، واسعُ العلم والثقافةِ، له منزلةٌ رفيعةٌ في اللغةِ والأدب، وهو قد بلغَ تلك المرتبةَ عن جدارةٍ واستحقاق. وإذا كانت المناصبُ السياسيةُ قد فاتته، فقد رفعَ نفسَه فوقَ أصحابِ السلطانِ بما حصَّلَهُ من العلومِ والآداب، وبما أضافَه على كلٍّ ما استوعبَه منها. وقد هَيّأت له معارفُه الواسعةُ بالعلومِ أن يرتفعَ إلى منزلةٍ كبيرةٍ في خلافةِ المأمون والمعتصم، وبخاصةٍ عند ابنِه أحمد، فقد قال ابنُ نَبَاتَة عنه «وكانت دولةُ المعتصم تتجمّلُ به، وبمصنَّفاتِه وهي كثيرةٌ جداً». وقال ابنُ أبي أُصَيْبِعَة «وكان يعقوبُ بنُ اسحاقَ الكنديُّ عظيمَ المنزلةِ عند المأمونِ والمعتصم، وعند ابنِه أحمد».

ويبدو أن المكانةَ التي حقّقها الكنديُّ في مختلفِ فروعِ المعرفة، والمنزلةَ التي حظيَ بها عندَ الخلفاء، أثارتِ حِقْدَ عددٍ من العلماءِ الذين ضَمَّتهم حاشيةُ هؤلاء الخلفاء، فهاجموه من كلِّ جانب، وبكلِّ سلاح. وتناقلوا عنه الكثيرَ من الشائعاتِ التي وصلَت إلى كتبِ التاريخِ والسِّيرة، فشَوَّهت سيرتَه وأساءت إلى منزلتِه. وكما قلنا، كان الكنديُّ مقرّباً من المأمون، عظيمَ المنزلةِ عندَ المعتصمِ يحضر مجلسه ويتولى تعليم ابنه، فدفعَ ذلك علماءَ عصرِهِ إلى تدبيرِ المكائد، واصطناعِ الدسائسِ لإبعادِهِ عن بَلاَطِ

الخلفاء، حتى ينفردوا بالحَظْوةِ عندَهم.

ومما يِروَى عن جوِّ التنافسِ والدسائسِ الذي كان شائعاً بين علماءِ البلاط، ما حدثَ أيامَ الخليفةِ المتوكلِ الذي ضمَّ بلاطُه عدداً من العلماء. كان من بين هؤلاءِ العلماءِ محمدُ وأحمدُ ابنا موسى ابنِ شاكر، وكانا يَكيدان لباقي العلماءِ حتى يَنفردا بمكانةٍ خاصةٍ عندَ الخليفة. وقد نَجَحا في إبعادِ عالمٍ فاضلٍ يسمّى سندَ بنَ علي، ودبَّرا مكيدةً للكنديِّ جعلت المتوكلَ يضربُه، ويبيحُ لهما مكتبتَه الثمينةَ التي كانت معروفةً باسمِ «الكنديّة» فنَهَبا أهمَّ كُتُبِهِ ومراجعِهِ.

عندما انفردَ محمدُ وأحمدُ بالمتوكل، لم يجدْ غيرهَما يُوكِلُ إليه أمرَ حفرِ النهرِ المعروفِ باسمِ «الجعفريّ»، فَنَدَبا مهندساً لهذا العمل، أخطأَ في حساباتِه، مما جعل منبعَ النهرِ منخفضاً عن باقي أجزائه، ولهذا امتنعَ تدفُقُ الماءِ في النهر. حاولَ محمدُ وأحمدُ أن يُدافعا عن أخطاءِ ذلك المهندس، إلاَّ أنَّ المتوكلَ أرسلَ يستدعي سند بن علي ليواجهَهُما به. قال المتوكل لسندٍ أمامَهما: ما تَرَكَ هذان الرديّان شيئاً من سوءِ القول، إلا وقد ذَكَراك عندي به، وقد أتلفا جملةً من مالي في هذا النهر، فاخرُجْ إليه حتى تتأمّلَه وتخبرَني بالغلطِ فيه، فإنّي قد آليتُ على نفسي إن كان الأمرُ على ما وُصِفَ لي، أن أصلِبهما على شاطئِه.

خرج سند معهما، وأخذَ محمدُ بنُ موسى يستعطفُه، ويقول له إنّ العفوَ عندَ المقدرةِ فضيلة، ويعترفُ بجريمتِه هو وأخيه في حقِّ سند. فقال سندٌ لهما: أنتما أعلمُ بما بيني وبين الكنديِّ مِن عداوةٍ وخِصام، ولكنَّ الحقَّ أَولى أن يُتْبَع، أكان من الجميلِ ما

فعلتماه بكتبِه ومَرَاجعِه؟. واللهِ لا أسمعُ منكما أيّ كلام، حتى تَرُدّا الكتبَ إلى الكندي.

فما كان منهما إلاّ أن حمَلاَ الكتبَ إلى الكِندي، وأخذا منه إيصالاً بتسلّمِه كافةَ كتبِه التي كانت لديهما. وعندما عادا إلى سندِ بالإيصال، سألاه: وماذا عن النَّهر؟. قال لهما: إن الخطأَ في هندسةِ النهرِ سيختفِي بعد أربعةِ أشهر عندما يفيضُ دِجلة، فإذا سألني الخليفةُ قلت له إنكما لم تُخْطئا. وبالفعل، فاضَ النّهر، وجَرَى الماءُ في «الجعفري»، وانصرفَ المتوكلُ عن هذا الموضوع.

وحتى عندما تمكَّنَ الكنديُّ من تثبيتِ أقدامِ الفلسفة، تلقَّى هجومَ رجالِ الدين، ونشأَ الصراعُ التاريخيُّ بين الفلسفةِ والدّين، ذلك الصراعُ الذي استمرَّ طويلاً على مدى التاريخِ الإسلاميّ.

بَخيلٌ أم مدبّر؟

لم يَسْلَم الكنديُّ من ألسنةِ معاصريه، وكلَّما أَعْيَتْهم محاولاتُ الهجومِ على علمِه ومعارفِه، بَحَثوا عن مَطْعَنٍ جديد في شخصهِ أو سلوكِه. ومن هنا تعدّدت عن بُخلِه وتقتيرِه النوادر. وهي نوادرُ إن بَدَا تزييفُها، وفاحت منها رائحةُ الصَّنْعَةِ والتلفيق، فقد شاعت في كتاباتِ الكُتَّاب، حتى تَبنّاها الجاحظُ في كتابِه «البخلاء».

ونتيجةً لصفةِ الفلسفةِ التي لحِقَت بالكنديِّ عن جدارة، خَلَطت تلك النوادرُ بين صفةِ البخلِ والمعرفةِ الفلسفية. ومن هذه

النّوادر، أن أمَّه أرسلت تطلبُ منه ماء بارداً، فقال لجاريتِه: املئي الكوزَ بماءٍ ساخنٍ من عندِها، وأَفرغيه عندنا، ثم املئي لها الكوزَ من عِندِنا بالماءِ البارد. ثم قال مُعقّباً: أعطتنا جوهراً بلا كيفيّة، وأعطيناها جوهراً بكيفيّة. والنكتةُ فلسفيّة، تشيرُ إلى اصْطِلاحاتِ الجوهرِ الذي هو الماءُ في حالتِنا هذه، والكيفيةِ التي تمثّلُ البرودة.

وربما كان الكنديُّ بخيلاً في حياتِه بعضَ الشيء، وربما كان مقتصداً مدبّراً. ولعلَّ السببَ في ذلك راجعٌ إلى ما وعاه منذ صِغَرِه حولَ تقلبِ الأحوالِ وضرورةِ الاحتياطِ للمستقبل، بعد وفاةِ أبيه وانتقالِ أمِّهِ من قصرِ الإمارةِ إلى بيتهم في الكوفة. بل لعلَّ السببَ هو حرصُه على إنفاقِ كلِّ ما يصلُ إلى يدِهِ على الكتبِ واقتنائِها، ودفعِ ثمنِ الترجمةِ والنَّسْخ. غير أن الجاحظَ لم ينظرْ إلى هذه الاعتبارات، فأورد في كتابِه العديدَ من النوادرِ حولَ بخلِ الكنديِّ وتقتيرِه.

وممّا أوردَه أنَّ الكنديَّ كان يزعمُ دائماً أن بدارِه امرأةً حاملاً وَحْمَى، ما أن تشمَّ رائحةَ الطعامِ التي تهبُّ من بيوتِ الجيرانِ يطلبُ منهم أن يُسْعفوا الحاملَ ولو بمغرفةٍ صغيرةٍ من ذلك الطعام. وهكذا كانت أطباقُ الطعامِ تردُ إلى بيت الكندي كلَّ نهارٍ تحملُ ما تنوَّعَ من أصنافِه. فكان الكَنديُّ يقولُ لأبنائِه: أنتم أحسنُ حالاً من أصحابِ الضِّياع والأراضِي الواسعة، فكلٌّ منهم يأكلُ صِنْفاً واحداً من الطعام، أما أنتم فتأكلون كلَّ الأصناف.

ومنها تلك القصةُ التي رَواها شَخْصٌ يسمَّى معبداً كان يسكنُ في دارٍ للكندي. فقد حدث أن نَزَلَ ضَيفان على مَعْبَد، ابنُ عمِّه

ومعه ابنٌ له، فتسلمَ في اليومِ التالي ورقةً من الكنديِّ يقولُ فيها: «إذا كان مَقْدِمُ هذين القادِمَين ليلةً أو ليلتين احتملنا ذلك، وإن كان إطماعُ السكانِ في الليلةِ الواحدةِ يجُرُّ علينا الطمعَ في الليالي الكثيرة». فكتب إليه معبد: «إن مُقامَهما نحوَ شهر». فأسرعَ الكنديُّ يجيبهُ: «إن الدارَ بثلاثين درهماً، وأنتم ستّة، لكلِّ رأسٍ خَمْسة، فإذا زِدت رجلين، فلا بدَّ من زيادةِ خَمْستين، فالدارُ عليك من يومِك هذا بأربعين». وعندما استفسرَ معبدٌ عن الأسبابِ الداعيةِ إلى هذه الزّيادة، مع أن ثِقَلَ أبدانِ الضيوفِ على الأرض، وطعامَهم على الساكنِ لا على صاحبِ الدار، أجابَ الكنديُّ بمرافعةٍ شهيرةٍ مقيماً البراهينَ على صدقِ دعواه على أُسسٍ رياضية.

وقد بلغَ من نَشَاطِ المخترعين لقصصِ بُخْلِ الكنديِّ أن اصطنعوا وصيةً كتبَها لابنهِ أبي العبّاس، وقالوا فيها على لسان الكندي «الدينارُ محموم، فإن صَرَفْته مات، والدّرهمُ محبُوس، فإن أخرَجْته فرَّ...». غير أن أسلوبَ هذه الوصيةِ المختلقةِ، يختلفُ بشكلٍ ملموسٍ عن أسلوبِ الكنديّ.

حياةٌ حافلة

في سنواتِ النضوجِ تلاحَقَت أعمالُ الكِندِيّ، وتتابعت مؤلفاتُه، وقد أوردَ ابنُ الندِيمِ قائمةً بمؤلّفاتِه فوصلَ عددُها إلى ٢٤١ كتاباً، موزعةً على ١٧ ناحيةً من نواحِي المعرفة. غير أنَّ الكثيرَ من هذه المؤلفاتِ ضاع، فلم يبقَ من أعمالِه سوَى ٥٠ كتاباً، طُبِعَ منها بالفعل ٤٠ كتاباً، وما زالَ الباقي مخطوطات.

ويجبُ ألا نتصورَ أن جميعَ هذه الكتبِ كانت في أحجامِ الكتبِ التي نتدَاولُها حالياً، ذلك أن معظَمِها لم يكن يتجاوزُ عدةَ صفحات، ويصلُ البعضُ إلى عشرِ صفحات. وهي أشبهُ بالرسائلِ الصّغيرة، أو أوراقِ البحث.

وتجيءُ كتبُ الكنديّ وكأنّها إجاباتٌ عن أسئلةٍ سبقَ أن وُجّهت إليه، فالكتبُ المطبوعةُ نراها موجهةً إلى الخليفةِ المعتصم، أو لابنهِ أحمدَ الذي كان الكنديُّ يعلّمُه، أو لأحدِ زملائهِ من العلماء، أو لأحدِ تلاميذِه الدّارسين. ولذا نرى أن كلَّ كتابٍ يشتملُ على مقدمةٍ تتضمَّنُ ثلاثةَ أشياء: دُعاءً لصاحبِ السؤالِ بالتوفيق، وتلخيصاً للسؤالِ يمكنُ أن نعتبرَه عنوانَ الرّسالة، ثم منهجَه في

البحثِ والدراسةِ الذي التزمَه عند التصدِّي لذلك الموضوع.

وقد اتخذَ الكنديُّ من تدريسِه لتلميذِه أحمدَ بن المعتصم، طريقاً لتأليفِ الكتبِ في شتّى الموضوعاتِ الفلسفية، من رياضيةٍ وطبيعيةٍ وميتافيزيقا وأخلاقٍ وسياسة. وأغلبُ الظنِّ أن الكنديَّ كان يقرأُ الموضوعَ على تلميذِه أولا، ثم يتناقشان فيه، ثم يعودُ التلميذُ فيسألُ الكنديَّ سؤالاً، وهنا يشرعُ الكنديُّ في تأليفِ الرسالةِ رداً على ذلك السؤال.

وبالإضافةِ إلى تلميذِه أحمد، تعلَّمَ عَلَى يديه عددٌ من التلاميذ، كانوا يَفِدون إلى دارِه حيث توجدُ مكتبتُه «الكندية» الغنيةُ بالمؤلَّفات. ويبدو أنّه لم يكن يكتُبُ الرسائلَ إلا لابنِ الخليفة، أما باقِي التلاميذ، فكان يتحدثُ إليهم، ويتولَّونَ هم تسجيلَ ما يقول. لذا تعدّدت الرسائلُ المنسوبةُ إليه، وفيها تكرارٌ لنفسِ الموضوعِ ونفسِ الفكرة، مع بعضِ الاختلافاتِ بالزيادةِ أو النُّقصانِ أو التحوير.

وقد تنوَّعت مؤلفاتُ ورسائلُ الكنديِّ في جوانبِ المعارفِ والعلومِ على الوجهِ التالي: ٢٢ كتاباً في الفلسفة، ٨ كتب في المنطق، ١٢ كتاباً في الحِساب، ٨ كتب في الكُرَيَّات (الهندسة الكرويّة)، ٧ كتب في العلوم الموسيقية، ١٩ كتاباً في علمِ النجوم، ٢٣ كتاباً في الهندسة، ١٦ كتاباً في الفلك، ٢٢ كتاباً في الطب، ١٠ كتب في القوانين، ١٧ كتاباً في الجدَل، ٥ كتب في علمِ النفس، ١٣ كتاباً في السياسة، ١٤ كتاباً في العلوم الطبيعية، ٨ كتب في الأبعادِ، ٥ كتب في المقدِّمات، ثم ٢٣ كتاباً في

جوانبِ المعرفةِ المنوّعة.

كان سببُ وفاتِه وتاريخُ وفاتِهِ موضوعَ خلافٍ بين المؤرّخين، والأغلبُ أنه توفّي عام ٨٦٦ م (٢٥٢ هـ)، في نفسِ السنةِ التي توفّي فيها الخليفةُ المستعينُ بالله، الذي قُتِلَ في إثرِ فتنةٍ حدثت بالبلادِ عام ٢٥٢ هجرية.

أما عن سببِ الوفاة، فيقال إنه كان مصاباً بداءٍ في ركبتيه يسببُ له آلاماً شديدة، وإنه أخذَ يجربُ وسائل العلاجِ المختلفة، فانتقلت الآلامُ إلى رأسِه، حتى مات.

إنجازاتُ الكنديّ

يُعْزَى إلى الكنديّ أنه سجَّلَ الحضارةَ الإسلاميةَ في زمانه، ورسمَ خطوطَها العامة التي ينبغِي أن تسيرَ عليها في المستقبل. فهو الذي صنّفَ الفلسفةَ إلى نظريةٍ وعمليةٍ، وقال إن النظريةَ تشمَلُ الرياضياتِ والطبيعيات، ودافعَ عنها وبيَّن فَضْلَها، فاستمرّت من بعدِه لعدّةِ قرون. وهو الذي وفَّقَ بين الدينِ والفلسفة، وحدَّدَ معالمَ هذه المسألة، ورسمَ طريقَ حَلِّها بما يُرضِي الدينَ ويُقنِعُ العقل، لهذا كلِّه استحقَّ لقبَ «فيلسوف العرب» الذي أُطلقَ عليه.

وفيما يلي بعضُ جوانبِ إنجازاتِه.

تصنيفُ العلوم

لما كانت الفلسفةُ محيطةً بجميعِ المعارف، فقد كان طبيعياً أن يَهتمّ الفلاسفةُ بتصنيفِ العلوم. وكانَ على الكندِيّ، باعتبارِهِ أولَ عربيٍّ مسلمٍ يخوضُ غمارَ الفلسفة، أن يتصدَّى لهذه المشكلةِ بطريقةٍ رائدة. وهو في واقعِ الأمرِ لم يبتدعْ تصنيفَ العلوم، فقد سبقَه إلى ذلك فلاسفةُ اليونان. غير أنه قامَ بالتوفيقِ بين المذاهبِ المختلفةِ في تصنيفِ العلوم.

ويتميَّز تصنيفُ العلومِ عندَ الكنديّ بميلٍ إلى العلومِ الرياضية. فكان يَرى أن تَعلُّمَ الرياضياتِ ضَرورةٌ لا بدَّ منها قبلَ تعلمِ العلومِ الفلسفية، ليتسنَّى لطالبِ الفلسفةِ فهمُها عن درايةٍ لا عن حفظ. ولم يلتزمِ الكنديُّ في ترتيبِ العلومِ الرياضيةِ ذَاتِهَا بتصنيفٍ واحد، فهو تارةً يصنفُها على أساسِ نظريةِ المعرفة، وتارةً أُخرى على أساسِ التدّرجِ من البسيطِ إلى المركَّب.

الموسيقى

كان الكنديُّ أولَ من وَضَعَ قواعدَ علمِ الموسيقى، فشقَّ الطريقَ أمامَ الفارابيّ ثم ابنِ سينا، وهما اللذان طَوَّرا هذا العلمَ وهَذّباه. ولا شك أنَّ اهتمامَ الكنديّ بالموسيقى راجعٌ من ناحيةٍ لعلاقتِها بالرّياضيات، ومن ناحيةٍ أخرى لأنّها كانت إحدَى سِمَاتِ عَصرِه. فقد كان الخليفةُ المهديّ مُغرماً بالموسيقى ومن أحسنِ الناسِ صوتاً، فازدحَمَ بَلاطهُ بالموسيقيين. كما ظهرَ في خلافةِ هارون الرشيد، إبراهيمُ المَوْصِلّي، وابنُ جامِع، وزلزل. ثم غَنَّى اسحاقُ الموصلي، ومُخَارِق، وعَلَويّة في بلاطِ الخليفةِ المأمون. فظهر الكثيرُ من التأليفاتِ الموسيقيةِ منذ خلافةِ الرشيد.

في هذا الجوِّ الفنيّ الذي ارتفعت فيه أصواتُ الغناء والموسيقى عاشَ الكندي، فوضعَ للموسيقيين الأصولَ النظريةَ التي يمكنُ أن تُبنَى عليها أنواعُ الغناءِ والألحانِ الموسيقية. فكان الكنديُّ صاحبَ أولِ مدرسةٍ للموسيقى في الإسلام، كما كان إسحاقُ المَوْصِلّي صاحبَ أولِ مدرسةٍ في الغِناء.

وللكنديّ مؤلّفاتٌ في صناعةِ التأليفِ والموسيقى، وفي

الآلاتِ الوَتَرِيّة، وفي التلحين. ولم يكن الكنديُّ ينظرُ إلى الموسيقَى لذاتِها، ولكنه كان يَعُدُّها وسيلةً لتحقيقِ غايةٍ إنسانيةٍ أعلى.

الفلك

رسائلُ الكندي في الفلكِ غيرُ موجودةٍ الآن، حتى نعرفَ مدَى مساهمتِه في وضعِ الأُسسِ الجديدةِ لعلمِ الفلكِ العربي. ولكن توجدُ بعضُ رسائِله المترجَمةِ إلى اللاتينية، ومنها نعرفُ منزلتَه الكبيرةَ في هذا العِلم.

لقد فاقت شهرةُ الكنديّ في أوروبا، شهرتَه عندَ أهلِ وطنِهِ والناطقين بلغتِهِ خلالَ العصرِ الوسيط. ففي أوروبا كانوا يعتبرونه أحدَ ثمانيةٍ هم روادُ علمِ الفلَكِ، وقاموا بترجمةِ الكثيرِ من رسائِله في علمِ الفلكِ إلى اللاتينية، ولا يزالُ بعضُها مسجَّلاً باللاتينية، رغمَ ضَيَاعِ أصلِه العربيّ.

الكيمياء

جمَعَ الكندي في رسائِله التي أطلقَ عليها «الأنواعيات» الكثيرَ من ألوانِ المعرفة، بعضُها كيميائي بحت، وبعضُها يدخلُ تحتَ الصناعاتِ التكنولوجية.

ومن الأبحاثِ الكيميائيةِ رسالةٌ في صناعةِ العطورِ وكيميائِها، تحت اسم «كتاب الترفقِ في العِطر»، وأخرى تحتَ اسم «كيمياء العِطْرِ والتصعيدات»، وفي هاتين الرسالتين، يتعرضُ الكنديُّ لأسسِ صناعةِ العطور، وبخاصةِ المِسْك، الذي يُورِدُ أكثرَ من طريقةٍ لصنعِه وتحضيرِه.

وعاصرَ الكندي ذلك الصراعَ العلميَّ الفلسفي، حول إمكانِ تحويلِ المعادنِ الرخيصةِ إلى ذهب. وقد عارضَ هذا الحلمَ بشدة، وكتبَ في ذلك رسالتين، إحداهما تحت عُنوانِ «التنبيه على خِدعِ الكيميائيين»، والثانيةُ بعنوان «إبطال دعوى من يدعي صنعَ الذهبِ والفِضّة»، وهو ينكرُ في هاتين الرسالتين إمكانَ أن يستحدثَ الناسُ مَعْدِناً غيرَ موجودٍ في الطبيعة، أو يُحَوّلوا معدِناً من المعادنِ إلى معدنٍ آخرَ مختلفٍ في طبيعتِه.

ومن رسائِله التي جاءت تحت عنوان «الانواعيات» والتي هي أقربُ إلى المصنوعاتِ الحَضَارِيةِ منها إلى الكيمياء، تلك الرسالةُ التي أسماها «رسالة في السيوف وأجناسِها». وفي صدرِ هذه الرسالةِ يوضّحُ الكنديُّ المنهجَ الذي اتَّبَعه في تجميعِ المعلوماتِ الضروريةِ لهذه الرسالة، وفيها يوضّحُ الفروقَ بين أنواعِ السّيوف، من حيثُ المعدنُ الذي تُصنعُ منه، والصورةُ التي تكَونُ عليها، وطريقةُ صنعِها. ثم يتحدثُ عن الفوارقِ بين أسعارِها، وطرقِ معالجةِ السيفِ الذي يُثْلمُ حَدُّه من كثرةِ الضربِ والطِّعان.

ثم هناك رسالتُه عن «الأدوية المركَّبة»، وهي غيرُ موجودةٍ باللغة العربية، ولكن توجدُ ترجمةٌ لها باللاتينية. في هذه الرسالةِ يسبقُ الكنديُّ الكثيرين من علماءِ أوروبا، بنظريتِهِ في التناسبِ الهندسيِّ بين قَدْرِ الدواءِ ومفعولِه بالنسبةِ للمريض. هذه النظريةُ التي لم تلقَ في زمانِهِ صدىً، فماتت إلى أن ظهرت بطريقةٍ تجريبيةٍ على أيدي العلماءِ الألمان.

النَّفْس

في دراسةِ النفس، جَمَعَ الكنديُّ بين مَذهبي أفلاطون وأرستطاليس، فقال: «إن النفسَ بسيطة، ذاتُ شرفٍ وكمالٍ، عظيمةُ الشأن، جوهرُها من جوهرِ البارِي عزّ وجلَّ، كقياس ضياءِ الشمسِ من الشمس».

ثم يقولُ إنَّ النفسَ الإنسانيةَ لا تنامُ أبداً، وإنما هي في حالةِ يَقَظةٍ دائمة. وقد أفاضَ الكنديُّ في الحديثِ عن النومِ والرؤيا، في رسالةٍ له تحمِلُ هذا العنوان، وقد نُقِلَت هذه الرسالةُ إلى اللاتينية.

الفلسفة

أولُ من لُقّبَ من العربِ بالفيلسوف، هو أبو يوسف يعقوبُ ابنُ إسحاقَ الكِندي، الذي أُطلقَ عليه «فيلسوف العرب».

قدَّمَ كتابَه الفلسفيّ «في الفلسفة الأولى» إلى الخليفةِ المعتصم بالله، وقد جاء هذا الكتابُ موافقاً لآراءِ أرسطو، الذي كان الكنديُّ على اطلاعٍ وثيقٍ على كتبه. وقد عُنِيَ الكنديُّ في مقدمةِ كتابهِ هذا، بنفيٍ تهمةِ الكفرِ عن الفلاسفة. وقد جاء هذا نتيجةً للصراعِ الذي شهدَه بين الفلاسفةِ ورجالِ الدين، الذي استَخْدَمَ فيه بعضُ رجالِ الدين تهمةَ الكفرِ والإلحاد، كسيفٍ مُسْلَطٍ على رقابِ الفلاسفة. ويقولُ الكنديّ إن الفلسفةَ والدِّينَ متّفقان موضوعاً، لأنَّ موضوعَ الفلسفةِ هو معرفةُ اللهِ ووحدانيتُه، ومعرفةُ الفضائلِ النافعةِ لاتِّباعِها، والرذائلِ الضارّةِ لاجتنابِها، وهذا هو موضوعُ الدين، الذي يأمرُ بمعرفةِ اللهِ وتوحيدِه، كما يأمرُ بالتقوى، وهي فعلُ الحَلاَلِ وتجنبِ الحرامِ، والتحلِّي بمكارمِ الأخلاق.

وقد تعرّضَ الكنديُّ في رسائِله للكثيرِ من الموضوعاتِ الفلسفية، فشقَّ لها طريقاً جديداً بين العربِ والمسلمين.

الفهرســت

علماء العرب

ابن خلدون
ابن سينا
الفارابي
الكندي

تتناولُ هذه السلسلةُ، بأسلوبٍ مُشوّق، وعبارةٍ واضحةٍ، حياةَ ستةَ عشرَ عالماً من مشاهيرِ علماءِ العربِ الذين ساهموا في تقدّمِ الحضارةِ، وفتحِ آفاقٍ جديدةٍ في العلمِ والمعرفةِ أمامَ الإنسانيّةِ.

السلسلةُ، باختصارٍ، غايةٌ في الأهميّةِ، لأنها تُقدّمُ للجيلِ العربيّ الجديدِ الوجهَ الأصيلَ من تُراثِ العربِ الذي أفادَ منه العالمُ أجمعُ، وأثنى عليه الغربُ قبلَ العربِ أنفسِهم.





المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
العنوان البرقي: موكيالي هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧
الغلاف: زهير أبو شايب